روايات عالمية



غرباء في البيت



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يونيو 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات

عالمية

العدد رقم ٢٧٨

غرباء في البيت

تأليف : جورج سيمينون

ترجمة : عبدالمنعم صادق

تمهيد

« قصة اخاذة . قصة محام يحيا حياة النساك المعتزلين . أخرجه من عزلته فجأة وعنوة حادث قتل ارتكب فى بيته ! » ..

من القاتل ؟

هل هى ابنته نيكولى التى جعلت من احدى غرف الطابق العلوى من بيته مقرا لعصابة من اللصوص الشبان الأشداء مدمنى الخمر ؟ .

أم هو عشيقها ؟ الذى افتخر بأنه كان فى غرفتها ليلة ارتكاب جريمة القتل ؟ .

أم أن القاتل هو المحامى نفسه الذى كان يوما ما من أبرز المحامين وأحزنه هجر زوجته اياه فأهمل ابنته الوحيدة وقضى حياته فى مكتبه على حين تتحدث المدينة كلها عن حفلاتها الصاخبة الماجنة ؟ .

ان هذا المحامى الذى اعتزل الناس يجد نفسه فجأة يرتاد جميع الأماكن المختلفة يهيم فى الطرقات محاولا تبرئة ابنته والرجل الذى تحبه من تهمة القتل ..

القسم الأول

- ١ -

روجيسار ؟.

أنا روجيسار ..

ووقف المدعى العام يرتعد فى قميص نومه . وكان البرد قارسا وخاصة بالنسبة لقدميه العاريتين . وكان قد تحسس الطريق الى نعله ولكنه لم يستطع العثور عليه . وكانت زوجته الراقدة فى الفراش تنظر اليه متسائلة .

وسأل روجيسار :

ـ من المتكلم ؟ .

وعندما سمع الرد قطب جبينه ولكى يريح زوجته ردد الاسم الذى سمعه :

ـ لورسا ؟.. أهو أنت يا هيكتور ؟ .

وثار فضول زوجته فرفعت نفسها قليلا واعتمدت على مرفقها ثم مدت يدها الى سماعة التليفون الأخرى . فقد كان هيكتور لورسا المحامى ابن عمها .

وسأل المدعى العام :

ـ ماذا هنالك ؟.

ومن الطرف الآخر من الخط رد لورسا بهدوء ؟

ـ وجدت توا غريبا فى البيت .. فى الفراش .. فى احدى غرف الطابق الثالث .. وقد مات فى نفس اللحظة التى وصلت فيها اليه .. فهل تفحص الموضوع يا جيرار ؟ أنا منزعج حقا .. ويبدو لى أن فى الأمر جريمة .

وعندما وضع المدعى العام سماعة التليفون فى مكانها قالت لورانس روجيسار التى لا تستطيع احتمال ابن عمها :

ـ لقد عاد الى سكره ! .

وكل ما حـدث فى ذلك المساء كان فى الواقع طبقا للنظـام المألوف . وان كان هناك خروج على الروتين اليومى فهو دقات قطرات المطر خارج البيت .

وكان أول مطر بارد فى الموسم فلم يذهب الى دار السـينما فى شارع الييه سوى عدد قليل من المحبين مع من يحبونهن .. وكانت الفتاة الجالسة فى شباك تذاكر السينما ضيقة الخلق وهى متجمدة فى قفصهـا الزجاجى الصغـير وترقب قطرات المطر المتساقطة بانحراف عبر الأضواء المتوهجة .

وكانت المولان روج كما تكون عليه فى أوائل شهر اكتوبر .. وفى فندق باريس وفى فنـدق ولى العهد وفى فندق الييه كان بعض الباعة الجائلين يتناولون طعام العشاء معا على المائدة الرئيسية وتقوم بخدمتهم فتيـات يرتدين ثيابا سوداء وجوارب سـوداء ومآزر بيضاء . ومن وقت لآخر تمر سيارة بالطريق لا يعرف أحد أين تمضى وربما تكون ماضية الى نيفـير أو كليرمون أو ربما الى باريس نفسها .

وكانت الحوانيت مغلقة ولافتاتها تلمع وهى مبتلة بالماء .

وكان هناك صفير وراء المنازل هو صفير القطار البطىء القادم من مونتلوسون يحمل عشرة ركاب .

وفى دار العمـدة كانت هناك مأدبة عشـاء أقيمت لعشرين شخصا وتسمى مأدبة العشـاء الشهرية والذين يدعون اليهـا لا يتغيرون عادة .

ولم تكن هناك نافذة غير مغلقـة . وكان صـوت وقع اقدام المارة القليلين جدا الى حد الندرة ينطق بالضيق .

وعند ناصية شارع فى قلب الحى السكنى القديم من المدينة يقع البيت الذى ظل أجيالا متعاقبة مأوى لأسرة لورسا أو لورسـا دى سان مارك . وان شابه هذا البيت البيوت الأخرى فى حجمه وطرازه الا انه كان يختلف عنها فى عزلته . كان نائيا غامضا هادئا وبين جناحيه فناء مرصوف يحجبه عن الشارع سور عال وتتوسطه

نافورة يحيط بها حوض خال والنافورة على صورة تمثال «أبوللو» يمكن ان ينفث المـاء من فمه ولـكن لم يكن هناك ماء قط يخرج من فم « أبوللو » .

وكانت غرفة المـائدة بالطابق الأول . وفيها جلس لورسا وقد ولى ظهره نحو النار المتوهجة والتى ينبعث منها دخان أصـفر .

وكانت تحت عينيه هالة سـوداء وكانت فى العينين نظرة غامضة لا تنم عن اهتمام بأمر ما .

وكانت المائدة المستديرة مغطاة بغطاء ابيض . وكانت نيكولى ابنة لورسا تتناول طعامها أمام أبيها فى جدية حزينة .

ولمـا انتهى لورسا من طعامه دفع مقعـده الى الوراء مقدار بوصة أو بوصتين ليتيح مسافة كافية لبطنه ثم جلس ينتظر .

وقـد كان يتعمد مثل هـذا الوضع ليكون فى هذا اشارة لنيكولى لـكى تدير رأسها قليلا نحو الخادمة الواقفة بالقرب من البـاب .

وعندئذ تفتح الخادمة ما يبدو كباب دولاب وتدس رأسها فيه وتصيح قائلة :

ــ الدور التالى .

وهناك فى الطابق السـفلى مطبخ به طاهيـة قبيحة الصورة كأنها ساحرة ضئيلة الحجم تنهض من تناول طعامها وتخرج صحنا من الفرن وتضعه على الرف الصاعد لتتلقاه الخادمة من أعلى .. وكان هـذا الرف قديما باليا يتكلف بذل كثـير من الجهد فى صعوده .

ولم تكن النار فى المـدفأة تشتعل كما يجب . وكان البيت مليئا بأمثال هـذه الأشياء التى تعمل ــ ان هى عملت ــ بصورة سيئة . ولم تفت احدا ملاحظة ذلك . وكان لورسا جالسا معتمدا بمرفقيه على المـائدة يتنهد كلما هوى الرف الصاعد وأعيد رفعه من جديد ويتنهد كذلك كلما هبت نسمة هواء على المدفأة وحملت منها بعض الدخان الأصفر واجتازت به جنبات الغرفة . وأعربت نيكولى عن ضيقها بالخبط بأصابعها على المائدة :

ـ نعم يا أنجيل ؟

وصبت نيكولى لنفسها كأسا من النبيذ الأبيض أما أبوها فقد كانت له زجاجة من البيرجندى يشرب منها فى أثناء تناوله الطعام دون أن يساعده أحد .

ـ مدموازيل .. أرجو أن تتفضلى بتسوية حساب أجرى عقب انتهاء طعام الغداء .

وانصت لورسا ولكن دون أن يعير ما سمع أدنى اهتمام .. وكان لا يكاد يعرف الخادمة التى تطلب تسوية الحساب وهى فتاة يدل مظهرها على انها أقوى من الأخريات وهى فى الواقع فتاة فظه لا تكن أى احترام لأحد .

ـ هل لديك المفاتيح كلها ؟.

ـ سلمتها لجوزفين .

وكانت جوزفين وهى المخلوقة الضئيلة الحجم فى الدور الأرضى وترفع الصحون على الرف الصاعد .

ـ حسنا .

ولم يسأل لورسا ابنته لماذا ستتركهم الخادمة أو من الذى أنذر الطرف الآخر ؟. والخادمة الجديدة عادة لا تستقر اكثر من أسبوعين ولم يعبأ لورسا بأمر الخدم .

واكل الكستناء المسلوق وكان كثير من القشر يتساقط على سترته المخملية ولم يعبأ بهذا أيضا ، فقد كانت السترة متسخة فعلا . ومن مكان ما جاء صوت تدفق الماء فى أنابيب نحو بالوعة ومن المحتمل ان تكون هذه الأنابيب فى حاجة الى اصلاح .

ولما انتهى لورسا من أكل الكستناء انتظر لحظة لعل شيئا جديدا يأتى الى المائدة . ثم كور فوطته فى كرة وضعها على المائدة لأنه لم يعن قط بثنيها على نحو سليم . ثم نهض .

كان هذا هو الذى يحدث كل مساء بدون تغيير . ولم ينظر الى نيكولى . وفى طريقه الى الباب همهم قائلا :

ـ طاب مساؤك .

وفى هــذه الساعة كانت خطواته ثقيلة مضطربة . فمنذ الصبــاح حتى تلك اللحظة كان قــد شرب ثلاث زجاجات من البيرجندى . وهو دائمــا يشرب نفس النوع ويأتى بالزجاجات بنفسه من القبو حالما يبرح الفراش وهو يمسكها برفق وحذر .

ومن الممكن تتبع حركات لورسا من خارج البيت وذلك بتتبع الضوء فى تنقله فى الممرات اذ يضاء المكان عند دخوله ثم يطفأ عند خروجه منه . وكان آخر ضوء لم يطفأ هو الذى أضىء فى المكتب ويقع فى آخر غرفة فى الجناح الأيمن .

وكان الباب مبطنا وكان هذا شأنه منذ أيام والد لورسا الذى كان محاميا هو الآخر ومن المحتمل أن يرجع عهده الى أيام جد لورسا الذى كان عمدة المدينة وشغل هذا المنصب حوالى عشرين عاما . وكانت المـادة التى صنعت منها بطانة الباب قد مزقت فى مكان أو مكانين فكشفت عن حشو البطانة .

وكانت هنـاك مدفأة لها رف من المـرمر . ولـكن يقلل من اهميتها وجود ذلك الموقد وهو من الحديد الزهر ويبدو انه كان قد وضع فى مكانه هذا بصفة مؤقتة حتى يغير بموقد لائق ثم نسى أمره وترك فى مكانه . وكان لورسا شديد العناية به ويقلب النار فيه برفق وكأنه يدلل كلبا عزيزا .

وحينئذ مرت أحداث اذ جاء القطار القادم من مونتلوســون وذهب لشأنه . وحوم فوق المدينة صوت قطار آخر ولكنه لم يكن أكثر من قطار بضاعة وكان هناك فيلم يعرض على بضــعة عشر متفرجا وهم متناثرون فى قاعة السينما تنبعث من ملابسهم رائحة البلل . وأدخل قائد بوليس المدينة ضيوفه فى غرفة التــدخين ثم فتح لهم علبة السيجار . ولم يلعبوا الورق فى ذلك المساء . وانتهز روجيسار المدعى العام الفرصــة ونام مبكرا .

وسعل لورسا وأفرغ ما فى انفه فى منديله كمايفعل المتقدمون فى السن وكما يفعل الفلاحون اذ يبسطون منديلهم كله ويضعونه على أنفهم ويسعلون بعنف ويفــرغون ما فى أنوفهم فى المنــديل ثلاث أو اربع مرات ثم يطبقون المنديل بعناية .

وكان وحيدا فى غرفته الشديدة الحرارة وقد اغلقها عليه . وكانت نيكولى تصف عمله هذا بأنه رذيلة ولكن حقيقة الموضوع هى أن المسألة مسألة ذوق . فقد كان الرجل يحب العزلة .

وكان شعره منفوشا دائما وزاد هو من اضطراب هيئته بماكان يفعله من وقت لآخر اذ يمرر فيه أصابعه . وكانت لحيته غير المشذبة محددة الطرف وقد اصطبغ شاربه باللون الأصفر من أثر التدخين .

وكانت أعقاب السجائر متناثرة فى كل مكان . وطقطوقة السجائر مليئة برماد السجائر .

وجلس لورسا بعض الوقت الى مكتبه وهو يدخن ثم نهض فى تثاقل ومضى الى الموقد ليأتى بزجاجة من البيرجندى كان قد وضعها بجوار الموقد لتدفأ قليلا .

وبالقرب من هذا البيت كانت السيارات تمضى مسرعة فى شارع باريس وتنعكس الأضواء المنبعثة منها على قطرات المطر فتضىء بدورها وجوه الجالسين داخل السيارات .

ولم يفعل لورسا شيئا بل كان يدع سيجارته تنتهى ليشعل غيرها بعدها ويلقى بعقب السيجارة على الأرض .

وأمسك كتابا وفتحه حسبما اتفق وأخذ يقرأ وهو يرتشف الشراب من لحظة لأخرى وقد وضع ساقا على الأخرى .

وكانت الغرفة مكدسة بالكتب حتى السقف . وكانت هناك فى انحاء البيت فى الحقيقة كتب أخرى زادت على طاقة غرفة المكتب . وبعض هذه الكتب اشتراه هو ، وبعضها آل اليه عن ابيه ، وبعضها آل اليه عن جده .

وكان أحيانا يدخل غرفة من الغرف الأخرى فى البيت وتقع عيناه على أكوام الكتب فينسى الغرض الذى جاء من اجله الى هذه الغرفة ويأخذ فى استعراض الكتب وهو مشعل سيجارته

الى أن تنتهى حتى يصل الى كتاب يرضيه فيبتهج بالعثور عليه ويعود به الى مكانه .

وقد ظل على هذا الوضع عشرين عاما ، بل ثمانية عشر عاما على وجه الدقة لا يمكن أن يقنعه شيء بتناول طعام عشائه خارج البيت والجهود التى بذلها روجيسار ابن عمه لاقناعه بتناول العشاء خارج بيته ذهبت عبثا . بل ان قواد بوليس المدينة كان الواحد منهم يعين فى المدينة فيظل يرسل اليه دعواته لزيارته ولا تجدى هذه الدعوات غير الاعتذار فيكف عنها الى أن ينقل الى مركز آخر ويأتى الجديد وتبدأ الدورة وتنتهى كما بدأت وانتهت الدورة السابقة .

وحك رأسه وهمهم وسعل وبصق . وكان يشعر بالحرارة التى تملأ جو غرفة المكتب . وكان قشر الكستناء يقع من فوق صداره ليحل محله رماد السجائر . وقرأ عشر صفحات من أحد المراجع القضائية وذلك بحكم مهنته كمحام ثم تركه جانبا وأمسك كتابا آخر يحتوى على مذكرات يرجع عهدها الى القرن السابع عشر .

ومرت الساعات وأخذ يتدرج في التفكير شيئا فشيئا وارتسمت فى عينيه النظرة الشاردة وبطأت حركاته .

وكانت غرفة النوم الأساسية هى الغرفة التى ينام فيها عادة سادة البيت وسيداته . وقد شغلها هو يوما ما مع زوجته . وكانت تقع في جناح آخر من البيت . ولكن أعواما عديدة انقضت دون أن ينام فيها لورسا . وكانت زجاجته أحيانا تفرغ فى منتصف الليل وأحيانا تفرغ بعد منتصف الليل بساعات قليلة فينهض ويفتح النافذة قليلا ليسمح لدخان الموقد بالخروج منها . ولم ينس أبدا عند مبارحته الغرفة أن يطفىء أضواءها .

وتعود ان ينام فى الغرفة المجاورة التى لم يفصل بينها وبين غرفة المكتب سوى باب مشترك . وكانت هذه الغرفة المجاورة يوما ما غرفة السكرتير ثم وضع فيها سريرا حديديا صغيرا بسيطا وهناك يخلع ثيابه تاركا الباب مفتوحا ويصعد على السرير ويأخذ

في التدخين الى أن يتنهد تنهـدا عميقا ثم يستسلم للنعاس ..
هكذا كان شأنه لا يتغير .

وفي المساء ـ ولابد أنه كان مساء الاربعـاء الثاني من الشهر الذي أقيمت فيه مأدبة العشاء الشهرية في دار العمـدة ـ قلب لورسا موقده بعناية فائقـة اذ كان البرد والبلل في خارج البيت قد جعل الجو المشبع بالضباب داخل البيت ممتعا فاخرا .

وكان يسمع صوت سقوط قطرات المطر وصوت ارجحة بعض ضلف الشبابيك الخشبية لأنها لم تكن قد ثبتت جيدا في مكانهـا كما كان يسمع ايضا صوت دقات ساعته في جيب صداره .

وكان قد قضى الساعة الأخيرة في قراءة سيرة حياة تيمورلنك في نسخة قديمة بالية . ثم وضع الكتاب جانبا . وربما كان يفكر في امساك كتاب آخر وقد يفكر في ذلك وتذهب الفكرة عنه .. ثم رفع رأسه ببطء في دهشة واهتمام .

وبلغ سـمعه صوت وهو في مكتبه . وكانت هنـاك جوزفين تنام في الغرفة التي تعلو غرفة المكتب مباشرة وتصعد الى هـذه الغرفة في تمام الساعة العاشرة من كل ليـلة وتظل في حركة مستمرة مدة نصف ساعة حتى تأوى الى فراشها .

ولـكن جوزفين كانت قـد أوت الى فراشها منذ ساعة ..
ولا يسمع هناك غير أصوات الريح والمطر أو صوت سيارة عابرة من حين لآخر أو صوت انسان يمشي في الطريق أو صفير قاطرة من وقت لآخر .

ولم يكن الصوت الذي سمعه واحدا من هـذه الأصـوات بل كان صوتا غير عادي وكانت غرابته في حقيقة الأمر هي التي أفاقت لورسا من ذهوله .

وبدا له الصوت في أول الأمر صوت قرقعة سوط وهو صوت مألوف سماعه في السـاعات الأولى من الصباح عنـدما يمضي الـكناسون بعرباتهم التي تجرها الجياد .

ولكن هذا الصوت لم يأت من خارج البيت ولم يكن صوت قرقعة سوط اذ كان فيه ثقل يزيد على ثقل صوت قرقعة السوط وقد أحس وقعه على صدره قبل أن يطرق سمعه .

ورفع راسه وانصت وكان التعبير المرتسم على وجهه ينم عن الضيق من هذا الصوت الذى اقتحم عليه عزلته .

ومما زاد من غموض هـذا الصوت وقوة تأثيره ما أعقبه من صـمت مطبق أقوى من أى صمت عادى . صمت بدا مليئـا بالاهتزازات .

ولم ينهض عن مقعده مباشرة بل ملأ كأسه ثم أفرغها فى جوفه واعاد سيجارته الى فمه . ثم قام ومضى نحو الباب وهناك انصت لحظة قبل ان يفتحه .

وعندما أضاء النور فى الممر لم يكن هناك سوى ذلك الصمت الثقيل الرهيب .

ونادى بصوت منخفض : نيكولى ! .

وتأكد له الآن ان الصوت الذى سمعه كان صوت طلقة مسدس ومع ذلك حاول اقناع نفسه بأن الصوت ربما جاء من الخارج ولكنه فى الحقيقة لم يقتنع بهذا .

ولم يثر أو ينفعل بل على العكس من ذلك مشى فى بطء وفى ثقل وجعله ظهره المحدب يبدو كالدب . وكانت مدام روجيسار تقول عنه انه يحدب ظهره عمدا للتأثير فى الناس .

ومضى فى الممر حتى وصل الى قلب البيت . ولما بلغ رأس السلم الحجرى انحنى فوق حاجز السلم وحدق بالنظر الى البهو الخالى عند أسفل السلم .

ــ نيكولى ! .

ومرة أخرى لم يرفع صوته ومع ذلك بدا له أن صداه رن فى جنبات البيت .

فهل يدع الأمر ويعود الى دفئه وهدوئه اللذين كان قد تركهما توا ولكن عدل عن هذه الفكرة اذ سمع فى الطابق العلوى وقع خطوات متلصصة .

ولم يكن أحد يقيم هناك بالطابق الثالث حاليا . أما فى الأيام الخالية حينما كان فى البيت خدم كثيرون منهم البستانى وسائق العربة ورئيس الخدم وعدة خادمات فكان بعضهم يقيم فى ذلك الطابق .

وكانت نيكولى تقيم فى غرفة بالطرف الأقصى من الجناح الأيسر ومضى أبوها فى الممر الذى يشبه ذلك الممر الذى جاء فيه من غرفته الى حيث كان واقفا . ووقف أمام باب ورأى وميض الضوء تحت عقب الباب ولكن سرعان ما انطفأ النور .

ونادى مرة أخرى : نيكولى .
ـ ماذا تريد ؟ .

وخيل اليه ان الصوت جاء من مكان غير المكان الذى تعود ان يظن سرير الفتاة فيه . وقال :
ـ دعينى أدخل .
ـ انتظر لحظة .

وكانت اللحظة طويلة جدا . فوراء الباب كان أحد ما يروح ويغدو محاولا أن يتم ذلك بأقل ضوضاء ممكنة .

وفى آخر الممر كان السلم الخلفى الذى يؤدى الى الدور العلوى من ناحية والى المطبخ من ناحية اخرى .

وكان لورسا لا يزال واقفا فى مكانه عندما سمع حركة على درج السلم . ولم يكن هناك أي شك فى هذا . وعندما استدار بأقصى سرعة شعر بالتأكيد بانه راى شيئا يحاول أن يختفى .. كان هناك واحد قد اندفع صاعدا ثم هابطا على السلم بسرعة .. وكان أقرب الى ان يكون رجلا منه الى ان يكون امرأة . وعندما عاود التفكير فى ذلك جزم بأنه رجل وربما كان رجلا شابا يرتدى معطفا من الماكنتوس البيج .

وانفتح الباب ووقفت نيكولى تواجه أباها . ونظرت اليه بهدوء ولم يكن على ملامحها أثر لفضول او عاطفة بل بدت خالية من الاهتمام .

ـ ماذا تريد ؟.

وكان المصباح المتدلى من السقف مضاء . وكذلك كان المصباح المجاور لفراشها مضاء وكانت اغطية الفراش مهوشة ولكن خطر ببال لورسا ان هذه الأغطية قد هوشت عمدا . أما بالنسبة لنيكولى فانها كانت بثياب نومها ولكن اباها لاحظ انها كانت مرتدية جواربها .

وسألها :

ـ أما سمعت شيئا ؟.

ثم نظر مرة أخرى ناحية السلم .

وقد اضطرت نيكولى الى الكذب لسبب فأجابت !

ـ كنت نائمة .

ـ فى البيت شخص ما .

ـ حقا ؟ .

وكانت ثياب نيكولى ملقاة على السجادة .

ـ بل لقد بدا لى أنى سمعت طلقة مسدس .

ومضى نحو نهاية الممر . ولم يكن خائفا ولا منزعجا . وفى لحظة ما هز كتفيه وكان على وشك العودة الى مكتبه . ولكنه سمع طلقة مسدس حقا وبوضوح وادرك أن هناك شابا قد هبط على السلم مسرعا ، لذا كان من الأفضل أن يبحث الأمر .

وأدهشه أن نيكولى لم تتبعه فورا بل ظلت متخلفة فى غرفتها وبعد عدة ثوان لحقت بأبيها وكانت قد خلعت جواربها .

ولم يكن ليهمه هذا فهى حرة تفعل ما تشاء ولكنه لم يملك الا أن يلاحظ ذلك .

ـ أنا واثق من أن رجلا هبط على هذا السلم . ولما كنا لم نسمع بابا يفتح أو يغلق فان هذا الرجل لا يزال فى البيت وربما كان مختبئا فى مكان ما .

لا أستطيع ان أتصور ان لصا يدخل هذا البيت الا اذا كانت هوايته الكتب القديمة .

وكانت نيكولى أطول قامة من أبيها وجسمها أكثر امتلاء من جسمه بل هى أقرب الى البدانة . وشعرها أشقر يميل الى الحمرة وعيناها سمراوان داكنتان ، أما أديم وجهها فقد كان أبيض .

وتبعته فى استسلام ولم تكن هى الأخرى خائفة بل كانت تشعر بالضيق .

وقال وقد وقف عند قاع السلم :

ـ لا أسمع صوتا .

وخطر له احتمال أن تكون ابنته قد استقبلت شابا فى غرفتها وقد حفزه هذا الخاطر الى العودة الى غرفته

ورفع رأسه مصادفة ورأى عند قمة السلم ضوءا خافتا ربما جاء من احدى غرف الطابق الثالث .

هناك ضوء فى الطابق الثالث .

ـ ربما كان فى غرفة جوزفين .

ونظر اليها فى احتقار نظرة صارمة ، ماذا يمكن أن تفعله جوزفين فى هذا الوقت من الليل فى الجناح المقابل للجناح الذى تقيم فيه وهذا الجناح لا يستخدم الا لتخزين خشب الوقود .. وفضلا عن ذلك فان جوزفين كانت مشهورة بالخوف من أى شىء ولم يكن محتملا قط أن تجول فى مثل هذه الساعة التى آوى فيها كل من فى البيت الى فراشهم . وهى شديدة العصبية الى حد انها كلما اضطر لورسا الى التغيب عن البيت بضعة أيام كانت تنتقل بحوائجها الى حيث تكون قريبة من نيكولى .

وصعد فى السلم فى بطء وثقل . وكان يعرف انه يضايق نيكولى باصراره هذا . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يبتعد فيها عن مداره المحدود الضيق . ومن المفهوم انه لم يكن يلتقى بابنته الا عند تناول الطعام ولم يسبق له أن أيقظها أو زار غرفتها فى منتصف الليل .

وكان لورسا كلما صعد فى درجات السلم مع ابنته ازداد اقتناعا بأنه يشم رائحة بارود .

وكان الممر العلوى ضيقا وعلى أرضه شريط ضيق من السجاد كان فى السنوات الخالية مستخدما فى الطابق السفلى . وكانت الجدران مغطاة بالرفوف وعليها هى الأخرى آلاف الكتب والمجلات والصحف القديمة وكانت نيكولى تتبعه فى غير انزعاج وقالت :

ـ انت ترى انه لا شىء هنا .

ولم تضف الى هذا القول هذه العبارة :

ـ لقد عدت الى الشراب !.

ـ ولكن نغمة حديثها أوحت بذلك بوضوح .

وتنهد وقال : على كل حال فقد أضاء بعضهم ذلك الضوء ..

وأشار الى المصباح الكهربى الذى يضىء الممر .

واستطرد يقول :

ـ ودخن هذه السيجارة .

وانحنى والتقط عقب سيجارة كان طرفها لا يزال ساخنا .

وكان مبهور الأنفاس من أثر صعود كل هذا السلم ومضى وهو بين اليأس والأمل . وكان لايزال يميل الى الرأى بأنه من الأفضل له أن يهتم بشأن نفسه هو .

ولقد كانت ذكرياته عن هـذا الجزء من البيت كلها ذكريات طفولة . فالغرفة التي كانا يمران بها الى اليسار ، كانت خاصة بـ « ايفا » ـ وكانت خادمة بالبيت ـ أحبها طويلا ولكنه احتفظ بحبه سرا . وفى ذات يوم وجدها مع سائق السيارة فى وضع لم يستطع نسيانه بعدئذ .

وبعد بابين كانت غرفة البستانى . وكان أكثر البستانيين وضوحا فى ذاكرته هو أوزيب الذى علمه كيف يصيد العصافير .

ولم يكن الباب مغلقا جيدا ولكن لم يكن هذا هو السبب الذى من أجله دفع لورسا الباب بل كان به فضول طفيف لرؤية ما حل بغرفة أوزيب وتخلفت نيكولى وراءه .

وكان داخل الفرفة مظلما ، ولكن لم يعد هناك ادنى شــك في رائحة البارود على الرغم من اختلاطها برائحة الدخان وفضلا عن ذلك فقد كان هنــاك صوت حركة ضعيفة لانسان يتنقل فى الغرفة .

وتحسس مــكان زر الاضاءة ثانية أو ثانيتين . وعلى حــين فجأة غمر الضوء الفرفة ووجد لورسا نفسه يواجه عينين تحدقان اليــه .

لم يتحرك ولم يستطع التحرك . فقد كان الأمر غير عادى . ولم يقتصر هذا على الموقف فى حد ذاته بل تجاوز هذا الى التعبير الذى نطقت به العينان .

كانتا عينى شخص راقد في الفراش وقد غطى جسده بملاءة الفراش وتدلت احدى ســاقيه من فوق الفراش وهى مغطــاة بالضمادات واللفائف بما يوحى بوجود كسر بها .

وما كاد لورسا يلم بهذه التفصيلات حتى استغرق فى التعبير المرتسم فى تينك العينين وهو تعبير الارتباك والحيرة .

وكان الجسم جسم رجل وكان الشعر قصيرا وصلبا ولــكن العينين كانتا عينى طفل كبيرتين واسعتين تنمان عن الخوف وبدا أنهما على وشك البكاء .

وارتعش الأنف ، والتوت الشفتان واشتركت الملامح كلهــا فى التعبير عن الخوف . هل كان على وشك البكاء ؟.

ضوضاء .. صوت انسان .. شيء بين النهنهة وبــكاء طفل حديث الولادة .

وفى اللحظة التالية ، نوع من الانهيار ، لا لأن الجسد كان من الممكن أن يقع فقــد كان ممددا فى الفراش بل لقد عدمت فيــه الحركة تماما . ولكن مهما كان الأمر فقد كان الوضع قوى التأثير الى حد أوقف تنفس المحامى لحظة .

ولمــا استعاد سيطرته على نفسه جرى وقــد تخلل شعره بأصابعه وقال بصوت بدا له هو نفسه انه لا يعرف مصدر هــذا الصوت :

ـ لا بد أن يكون قد مات .

ثم قال :

ـ ومن هو ؟ .

ولم يكن لورسا مخمورا وفى الواقع لم يصل به الأمر يوما ما الى حد أن يكون مخمورا . ومع مضى الوقت شعر بدوار فى رأسه وبتشويش فى أفكاره التى أصبحت مترابطة بخيط لم يكن هو خيط منطق كل يوم . وكان يخرج من فمه بعض كلمات فى صورة همهمة غير مفهومة وهى خافتة كل الخفوت ولما كانت كلماته بهذه الصورة كان ابسط ما يخطر ببال رائيه وسامعه ان يقول :

ـ انه لا يزال مخمورا .

وحدقت نيكولى اليه بالنظر وهى مذهولة . كما لو لم يكن هناك شىء غريب فى كل ماوقع الليلة لا طلقة المسدس ولا الاضاءة المتروكة فى الطابق الثالث ولا هذا الغريب الميت أمامها فى ذلك الفراش . لم يكن فى كل هذا شىء غريب فيما يبدو بل الغريب هو هذا الرجل ، هو أبوها الذى وقف أمامها هادئا فى ثقل .

* * *

واستطاعت الفتاة التى عند مدخل المسرح أخيرا ان تغلق شباك التذاكر وكانت غرفتها الضئيلة على الرغم من الماء الساخن فى أنابيب تحت قدميها غرفة تعذيب لها طول فصل الشتاء .. وخرج من المسرح آخر اثنين كانا بداخله ووقفا قليلا تحت الأضواء المتألقة ثم اندفعا فى الظلام والمطر . وعندئذ فى أنحاء متفرقة من المدينة أبواب تفتح ثم تغلق بعد تبادل تحيات المساء .

وفى دار العمدة أديرت كئوس الشراب على الضيوف وكانت الكئوس الأخيرة ايذانا للناس بالانصراف .

ـ هاللو روجيسار ..

ووقف المدعى العام يرتعد فى ثياب النوم لم يستطع أبدا أن يعود نفسه ارتداء البيجاما على الرغم من محاولته ذلك أكثر من مرة . ونظر الى زوجته ثم الى التليفون كما لو كان يلوم التليفون لنقله الأنباء السيئة اليه .

وعاد لورسا الى غرفته . ووقفت نيكولى وهى بقميص النوم

بالقرب من الباب . ولم تكن جوزفين قد ظهرت بعد . ولو انها كانت مستيقظة فلا شك فى أنها الآن متجمدة فى فراشها ذعرا محاولة ألا تسمع شيئا ومع ذلك كانت مصغية منتبهة كل الانتباه .

وبعد أن أعاد لورسا السماعة الى مكانها أراد أن يصب لنفسه كأسا ولكن الزجاجة كانت فارغة ولو شاء احضار زجاجة اخرى لكان عليه أن يذهب لاحضارها ومعنى هذا اشعال شمعة ولورسا مازال على اصراره الا يضىء قبو الخمر بالكهربا .

وقال لابنته .

ـ أظنك ستسألين . وخير لك أن تفكرى فيما يجب أن تجيبى به كما أنه يجب أن ترتدى ثيابك .

ونظرت اليه نظرة صارمة وكان هذا أمرا طبيعيا اذ لم يكن فى ذلك البيت مكان للعاطفة . لم يسبق لأحدهما أن كان فظا مع الآخر ، اذ كان من النادر ان يتبادلا كلمة واحدة .

وقال لها : ـ اذا كنت تعرفين الرجل فخير لك أن تبادرى بالتصريح باسمه .. أما ذلك الرجل الذى رأيته يهبط على السلم بسرعة ..

ورددت ما سبق أن قالته له :

ـ لا أعرف أى شىء عن هذا الموضوع .

ـ لك ما تشائين ولاشك فى أن جوزفين ستسأل هى الأخرى وتلك الفتاة ما اسمها ؟. انجيل ...

ولم ينظر اليها ومع ذلك فقد كان يحس على نحو ما أن كلماته قد أصابت هدفها .

وأخيرا قال وهو ينهض على قدميه ويمضى نحو الباب :

ـ سيكونون هنا بعد وقت قصير .

ستكون المسألة بلا نهاية ذلك أن روجيسار لن يحضر وحده وسيأتى معه كاتبه ومفتش البوليس وسيأتى هذا من غير شك ومعه واحد أو اثنان من رجاله وربما جروا معهم قاضى التحقيق ايضا ولو دعا الأمر الى تقديم المنعشات لهم فان الكثير من الخمور موجود فى الدولاب .

ومضى نحو المطبخ بحثا عن شمعة ، وفي الأحوال العادية كانت جوزفين هى التى تقدم له الشمعة أما فى هــذا الوقت من الليل فعليه أن يجد بنفسه الشـــمعة وقضى بعض الوقت وهو يتلمس طريقه فى الغرفة التى لم يكن له بها عهد .

واخيرا وجـــد ما كان يريده ونزل الى القبو وعاد وهو يلهث وبيده زجاجة من البيرجندى .

وفى أثناء صعوده وقف بالدور الأرضى لفحص الباب الخلفى الذى يفتح على حارة مسدودة هى حارة الدباغين .

ولم يكن الباب مغلقا بالقفل ففتحه ثم أغلقه ثانية بسرعة وقد اشمأز من هواء الليل البارد ومن رائحة المخلفات الكريهة .

وعندما عاد الى مكتبه كانت نيـكولى قـد اختفت . ولابد أن تكون قد ذهبت الى حيث ترتدى ثيابها . وســـمع ضوضاء فى الشارع وفتح النافذة قليــلا جدا وأطل منها ، ووجد أحد رجال البوليس ومعه دراجة ينتظر عند الناصية .

وفتح لورسا الزجاجة بعناية ، وان كان يبدو مركزا اهتمامه بهذا العمل الذى يقوم به الا ان عقــله كان لا يزال على الرغم من ذلك مشغولا بالرجل الميت فوق . كانت الرصاصة قد اطلقت على صدره من قرب أطلقها شخص أبعد ما يمكن ان يكون عن الهدوء والاستقرار لأن الرصاصة التى كانت من غير شـــك موجهة الى القلب دخلت الجسم أسفل العنق . ولاشـــك فى ان هذا كان السبب فى ان الجريح بدلا من ان يصرخ لم يستطع أن يخرج من فمـــه اكثر من حشرجة عجيبة فى صوتها . وقـــد مات نتيجة لنزف دمه .

وكان مخلوقا ضخم الجثة وزاد من مظهـــر ضخامته فقدانه الحياة اذ أصبح كتلة ضخمة من اللحم ولو انتصب واقفا لــكان اطول قامة من لورســـا نفســـه ببضـــع بوصـــات . وكانت ملامحه خشنة اذ هى ملامح فلاح أو ملامح وحش قوى الجسم ضعيف التفكير .

واخذ لورسا يرتشف الخمر .

وتمتم قائلا : عجيب !.

وســـمع صوتا آتيا من فوق . لابد انها جوزفين تتقلب فى فراشها ولم يكن هــذا ليعنى انها ستنهض .. ابدا فانها لا تبرح فراشها الا اذا جرت منه جرا .

وحينئذ كان فى فندق باريس ثلاثة يلعبـــون الورق مع رب الفندق الذى كان ينظر الى الســـاعة من لحظة لأخرى ، وفى دار العمدة أيضا أغلق البواب باب الدار بعد أن بارحتها آخر سيارة ، واشتد انهمار الأمطار التى تسوقها الريح الشمالية الغربية .

واعتمد لورسا بمرفقيــه على مكتبه وحك رأسه وســقط رماد سيجارته فوق عــروة سترته وجالت عيناه الواسعتان فى أنحاء غرفته وتنهد وهو يتمتم قائلا :

ـ سيسبب لهم هذا هزة !.

وكان معنى «هم» فى «لهم» هـــذه كل واحد وأول الجميع روجيسار أو بالأحرى زوجته لورانس التى كان من شأنها الاهتمام بمثل هذه الأمور أشد من اهتمام روجيسار بها وهو الاهتمام بكل المسائل المتعلقة بالخطأ والصواب وبما تم عمله وما لم يتم عمله .

ويلى روجيسار المسئولون فى محكمة العــدل مثلا الذين لم يعرفوا أية نظرة يلقونها على تلك المناسبات النـــادرة التى كان لورسا يظهر فيهـــا فى المحكمة ومنهم القضاة والمحامون وكاتب الجلسة وكل من عداهم .

وأناس مثل دوسا زوج شقيقة لورسا الذى ابتكر آلة الدراس المعروفة باسمه والذى حاول أن يكسب ود السياسيين على أمل أن يصبح يوما ما مستشارا عاما ، وزوجتـــه مارتا وهى شـــقيقة لورسا .

والجيران وجميع الناس الذين كانوا أغنياء وغيرهم من تجار وأصحاب فنادق وأعضاء نقابة المبتـــكرين جميعا من كبيرهم الى صغيرهم .. سيشتركون جميعا فى التحقيق .

ذلك لأن غريبا وجد قتيلا فى احدى الغرف العليا من البيت والبيت بيت لورسا دى سان ـ مارك !.

ولأنه كان بطريقة غامضة بعض الشيء على صلة بالمدينة كلها. ذلك لأن المدينة ظلت قرابة عشرين عاما تحت حكم جده الذى اطلق اسمه على أحد شوارعها وأقيم له تمثال وسط أحد ميادينها وكان جده يحكم المدينة حكما أبويا .

وشرب كأسه وملأ غيرها ولم يستطع أن يشرب الثانية لأنه سمع أصوات السيارات فى الشارع وكانت السيارات أكثر من اثنتين .

وكانت جوزفين لم تبرح فراشها ونيكولى لم تظهر ثانية فلم يكن أمامه سوى أن ينزل الى الطابق الأرضى وأن يفتح الباب بنفسه .

وعندما فتح الباب الخارجى ظهرت سيارة أخرى .

- ٢ -

كانت الساعة الحادية عشرة عندما فتح عينيه ولكنه لم يعرف ذلك فالساعة لم تكن قريبة من متناول يده بل كانت فى جيب صداره . وكانت الغرفة مظلمة ظلمة القبو ذلك لأن شعاع الضوء الذى امكن أن يتسرب الى داخل الغرفة كان على شكل خط منكسر وهو يتسرب اليها من خلال فرجات الشيش أو على وجه التحديد من خلال ثقبين فى ذلك الشيش وكان الثقبان يلمعان .

وأخذ لورسا يدرس الثقبين بجد ولكنه ذلك الجد الذى يوليه الأطفال للأشياء التافهة . وكان ما يريد الوصول اليه من تلك الدراسة هو الوقوف على كنه النهار خارج الدار . ولا يستطيع المرء أن يصف لورسا بأنه يؤمن بالخرافات ومع ذلك فقد كانت تخطر له أحيانا أمثال هذه الخواطر الغريبة التى تقع فى نطاق الايمان بالخرافات ومن هذه انه اذا استطاع تخيل ما عليه النهار فى الخارج وصدق حدسه كان ذلك فألا حسنا .

واستقر على رأى .. اليوم مشمس ثم تقلب فى فراشه فى ثقل وأدار زر الجرس الكهربى فأخذ الجرس يرن فى مطبخ جوزفين .

وكانت هناك تصب كأسا من النبيذ لرجل البوليس بزيه الرسمي وهو جالس أمام المنضدة في راحة كبرى .

وسألها : ما هذا ؟ .

وأجابت في ازدراء :

ـ انه أمر لا يهم .

وظل المحامي راقدا على ظهره في فراشه ينتظر وهو ينصت الى الأصوات في البيت . وكانت الأصوات بعيدة جدا ومتداخلا بعضها في البعض الآخر الى حد لم يستطع معه أن يميز منها شيئا وضغط زر الجرس مرة أخرى ، وتطلع رجل البوليس الى جوزفين متسائلا ولكنها هزت كتفيها وقالت :

ـ ليته يموت ! .

وامسكت ابريق القهوة وكان على جانب من الموقد وصبت ما فيه في ابريق آخر أصغر حجما ثم وضعت الابريق الصغير على صحفة ثم وضعت على الصحفة أشياء أخرى مثل السكرية والفنجان والملعقة .

ولما صعدت الى أعلى لم تعن بأن تطرق الباب أو أن تلقى تحية الصباح بل وضعت الصحفة على المقعد الذي كان يستخدمه كمنضدة صغيرة بجوار الفراش ثم ذهبت الى النافذة وفتحتها .

وجاءت النتيجة مخيبة لأمل لورسا ورأى نفسه ضائعا اذ كان الجو قاتما والسماء ملبدة بالغيوم في لون الزئبق .. ولكن السحب انجابت بعد قليل وسمحت لبعض أشعة الشمس بالتسلل فترة وجيزة وسرعان ما اختفى الاشراق .

ـ من الذي تحت ؟ .

وكان هذا الوقت من أصعب أوقات النهار وهو يستمر عادة ساعة أو بعض ساعة يتخذ خلاله كل اجراءات الحيطة والحذر . فلابد من أن تكون كل حركة بطيئة ومريرة ، وكانت معدته سريعة الاضطراب .

وارتشف القهوة وهو ينصت الى جوزفين وهي تشعل نار مدفأة المكتب وكانت تقوم بهذا العمل دائما بعنف وقسوة على

نحو تبدو معه وكانما هى حاقدة على هذا الموقد ؟ وكان الباب بين الغرفتين مفتوحا .

ــ يوجد أناس كثيرون تحت . بل ان البيت ممتلىء بالناس فى الحقيقة .

ــ والآنسة ؟ .

ــ انها مع واحد منهم فى غرفة الاستقبال منذ ساعة .

ومن الممكن معالجة أقوال جوزفين على أنها نكتــــة . واذا لم تعالج على هذا النحو فلأن الآخرين كانوا قــد ألفوها تماما . اذ كانت جوزفين قد قضت سنوات طويلة فى هذا البيت . ولم تكن نيكولى قد جاوزت الثانية من عمرها عندما كلفت جوزفين ادارة البيت وظلت تسيطر على هذا البيت بمزيج غريب من الاخلاص والكراهية . اخلاص للطفلة . ثم اخلاص لها عندما أصبحت فتاة وكراهية لــكل من عداها وخاصة ان جرؤ أحدهم على الاقتراب من جوهرتها الغالية .

وكانت تكره لورسا أولا وقبل كل شيء .

ولم يكن سبب ذلك انه ارتكب خطيئة التدخل فى شئــون نيكولى . بل لقد كان لورسا على عكس ذلك تماما اذ جعل اغماض عينه عن كل ما يجرى فى البيت مبدأ يلتزمه . ولكنه على كل حال سيد البيت .. وكان له الحق فى أن يبدى اهتمامه بابنته وكان هذا وحده كافيا لاثارة روح العداء نحوه .

وقد حدث مرة أو مرتين أن فتح لورسا الباب وعن غير قصد فاجأ جوزفين وهى راكعة على ركبتيها تدلك قدمي الفتاة الصغيرة تدفئهما بيديها .

وبعد ذلك تصبح فى سلوكها غير مقبولة عند الجميع وفيهم نيكولى نفسها .

وبعد أن شرب لورسا القهوة رقد ساكنا مدى ربع ساعة ..

وعندما جاء أوان شرب المياه المعدنية شرب الزجاجة كلها وهــو يتغرغر بالمــاء قبل أن يزدرده . وبعدئذ اســتطاع أن ينهض من فراشه وأن يرتدى ثيابه وان كان قد بذل كل عناية فى كل حركة

يأتي بها . وبعد ساعة أو تزيد شرب خـــلالها كأسين أو ثلاثا من البيرجندى سيطر على نفسه تماما .

وسألها :

ـ هل عاد روجيسار ؟ .

ـ لا أستطيع علم ذلك . فأنى لا أعرفه .

وكان في هذا أصدق بيان لمدى العزلة التي يعيش فيهـا كل فرد في عائلة لورسا .

وكان من النادر ان يستخدم الحمام . فقد كان الحمام بعيدا جدا اذ كان في الجناح الآخر من البيت . وكان يـكتفى بحوض غسل الوجه الذى وضعه فوق رف دولاب . ولم يزعج نفســه باغلاق الباب وهو يغتسل ويتزين وكان من وقت الى آخر يطلق سؤالا على جوزفين وهى تقوم بعملية تنظيف غرفة المـكتب .

ـ كيف حال الآنسة اليوم ؟ .

وترد جوزفين على هذا السؤال باجابة قارصة :

ـ وكيف تنتظرها ان تكون ؟.

ولقد كان ما حـــدث في الليلة المـاضية شيئا مضحكا اذا فكرت فيه . لقد كان يظن أى واحد ان أسرة لورسا سوف تشعر بحيرة وارتباك على الأقل وبين أيديهم جثة رجل قتيل . ومع ذلك فان روجيسار وحده هو الذى ظهرت عليه آثار الحيرة .

والمدعى العام رجل نحيف ، مديد القامة ، شأنه في ذلك شأن زوجته وكان يشار اليهما أحيانا على سبيل السخرية بأنهما مثل « خيال المآتة » وهو التمثال الذى ينصب في الحقل من قطعتين متعارضتين من الخشب ويوضع عليهما ثوب انسان لاخافة الطيور من الهبوط على الحقل .

وبدا عليه الانشغال وهو يصافح لورسا وسأله وهو متجهم الوجه :

ـ ماذا كنت تحاول ان تقوله لى في التليفون ؟.

وواضح أنه لم يكن ليندهش ان أجابه هـــكتور لورسا بابتسامة :

ـ انما كنت أمزح معك ! .

ولكن لم يكن هناك شيء من ذلك . بل كانت في البيت جثة حقا ، ومضى لورسا يسبقه الى الطابق العلوى وفتح باب الغرفة كما لو كان يفتحه لادخال زائر عادى يريه غرف البيت .

وقال بهدوء :

ـ أنا لا أعرف من هو ولا كيف جاء الى هنا ولم أحاول في الواقع أن أقف على شيء من هذا . فهذا العمل من اختصاصك أليس كذلك ؟ .

وأخذ سكرتير روجيسار يسعل من لحظة الى أخرى حتى ضايق أعصاب الجميع . وكان هناك أيضا مفتش بوليس الطوارىء وهو رجل قصير القامة خفيف شعر الرأس بارد النظرات لا ينطق بكلمة دون أن يسبقها بعبارة « معذرة » .

وكان هو الآخر مبعث مضايقة اذ كان دائما يعترض طريق كل واحد وكان معطفه وهو بلون الشيكولاته سببا للمضايقة .

وسأل روجيسار بطريقة الرجل المضطر الى القيام بعمل لا يقبله :

ـ هل نيكولى في البيت ؟ .

ـ انها ترتدى ثيابها وستكون هنا حالا .

ـ هل تعرف ؟ .

ـ كانت معى عندما فتحنا الباب .

ومن المؤكد أن لورسا كان قد شرب كثيرا ـ بل أكثر مما تعود ـ وكان في كلامه شيء من الثقل . وكان هذا في حد ذاته مثيرا للارتباك والخجل ـ لا بالنسبة للورسا بل للمدعى العام ـ أمام كاتب النيابة ومفتش البوليس والرجلين الآخرين اللذين لحقا بهم الآن .

ـ هل تقصد أن تقول انه لا يعرف أحد من أهل البيت هذا الرجل ؟ .

وكانت نيكولى رائعة منذ البداية . وما كان دخولها ليزيد روعة لو أنها كانت قد تدربت عليه منذ أسبوع وكان دخولها مثيرا

لدهشة الجميع حتى أبيها وهو يرى ابنته بمثل هـذه الصورة الاجتماعية. كانت كمضيفة تدخل غرفة الاستقبال حيث ينتظرها ضيوفها .

ومضت قدما نحو المدعى العام باسطة يدها :

ـ نعمت مساء يابن العم ! .

ثم اتجهت نحو الآخرين كما لو كانت تنتظر ان يقدموا أنفسهم اليها ..

« سادتى ... »

لقد كانت كشفا جديدا فلم يسبق لها أن كانت مثل ذلك قط من قبل ..

وقال روجيسار وهو يشعر بعدم الراحـة من وجوده أمام جثة مفتوحة العينين :

ـ اقترح أن ننزل الى تحت .. أما أنت يا سـيادة المفتش فانى أطلب منك أن تبقى هنا وتلقى نظرة هنا وهناك ..

وهبطوا الى غرفة المائدة وهى الغـرفة الوحيـدة الميسـورة فيما عدا مكتب لورسا . أما غرفة الاستقبال فانها لم تستخدم منذ عدة سنوات .

ـ هل يمكن أن أوجه الى نيكولى بضعة أسئلة يا هكتور ؟ .

ـ سلها ما تشاء اما اذا اردتنى فى شىء فانى فى مكتبى .

وبعد نصف ساعة لحق روجيسار به فى غرفة المكتب . جاء اليه وحده ..

ـ انها تؤكد لى انها لا تعرف شـيئا قط عن الموضوع .. وأنت تعرف يا هكتور أن هذا الأمر خطير جدا وقد أصدرت أمرى بنقل الجثة الى معـرض الجثث ولا أستطيع فتح التحقيق فى منتصف الليل رسميا . وسنبدأ التحقيق فى الصباح ويؤسفنى انى مضطر الى ترك رجل فى البيت .

طبعا . كان فى استطاعته أن يترك ستة رجال فما كان هـذا الأمر ليهم لورسا .

ـ أليست لديك أية فكرة عما يجرى هنا ؟.

ـ بتاتا ..

وقد رد لورسا هذا الرد وهو شارد التفكير الى حد زاد من بلبلة روجيسار . هل كان لورسا يرفض أية معاونة ؟ أم أنه كان يرى أن الموضوع كله مجرد نكتة .

وكان واضحا أن المسألة ستكون غاية فى التعقيد والدقـــة ولا بد في معالجتها من بذل عناية خاصة .

ان لورسا لم يتعود الخروج من بيته قط ولم يختلط بالمجتمع ومع ذلك فهو من أعضاء هذا المجتمع .

ويرجع الى اعتزال الناس الى حد ما فضل التخفيف من أثر عيوبه . لقد كان يشرب الخمر . ولـكنه كان يشربها وحده .. وفى بيته دون أن يثير كثيرا من التعليقات .

ولقد كان فى الحقيقة يتعرض للـكثير من قسوة الحكم عليه ولـكنه مع ذلك محل رثاء .

يا للعار على مثل هذا الرجل القدير الذى كان فى اســتطاعته ان يفعل الشيء الكثير .. انه ان بدأ الحركة فى أمر ما .وخرج الى المدينة فلن يستطيع أحد لمسه .

وهذا صحيح فقد حدث أن خرج مرة أو مرتين خلال السنة واخذ مكانه بين المحامين .

ولم يفكر أحد فيما كان يحدث عندما هجرته زوجته فجـأة منذ ثمانية عشر عاما قبيل عيد الميلاد ببضعة أيام تاركة اياه وحده مع طفلته البالغة من العمر عامين . وزار الكثيرون البيت خـلال الأسابيع التالية ولـكن الباب ظل مغلقا فى وجوههم .

واخيرا استطاع روجيسار أن يخرجه من عزلته ..

ـ تعال بنا يا صديقى فانه يجب عليك الا تقضى على نفسك ولن تستطيع أن تقضى حياتك راهبا ناسكا ! .

لا يستطيع ؟ لقد مضى فى التجربة ليثبت انه يستطيع هـذا الأمر واستمر فى هذه المحاولة ثمانية عشر عاما وفى خلال هـذه الأعوام لم يكن فى حاجة الى زوجة أو صديقة . كان مكتفيا ذاتيا وطلباته من الخدم على أقل قدر ممكن من الخدمات وترك لهم حرية التصرف فى كل ما يشاءون ما داموا يتركونه يتصرف فى شـئونه كما يشاء .

أما طفلته فقد نفض يديه منها تماما . ولم يكن يكرهها لانه لم يشأ أن يسمح لعاطفة مثل الكراهية ان تفسد عليه عزلته .. اخرجها من حياته تماما لا لمجرد انه انطوى على نفسه بل لأنه شك فى أن تكون الطفلة ابنة رجل آخر .. سبق له أن كان يعمل فى البلدية .

ولقد أثرت هذه الكارثة فى كل واحد ويرجع بعض هذا التأثير الى انها وقعت على غير انتظار فلم تسبقها فضيحة وكذلك لم تعقبها فضيحة ، بل انه لم يعرف أحد ماذا حل بالمرأة .

وكان اسمها جنفياف وهى سليلة احدى العائلات العشر الكبرى فى المدينة وكانت حسناء رقيقة القوام وعندما تزوجت قال الناس جميعا ان هذا الزواج ثمرة حب حقيقى .

وانقضت ثلاثة أعوام ولا همس بفضيحة ولا ثرثرة خبيثة وعلى حين فجأة اختفت جنفياف .

وطبعا لم يكن ممكنا ترك الأمر ينقضى هكذا واذا لم يكن هناك شىء معروف فلابد من اختراع سبب لهذا الاختفاء . وعلى هذا النحو تناول الناس اسم برنار وكان برنار شابا وسيما حسن الطلعة استقال من منصبه فى البلدية وقتئذ ليشغل وظيفة أخرى . ولم ينقض وقت طويل حتى كان الناس مستعدين لأن يقسموا بأنهم واقفون على خبايا القصة منذ وقت طويل وقال البعض ان قصة الغرام بدأت قبل زواج جنفياف من لوروسا .

وربما كان هناك شىء من الحقيقة فى هذه الشائعات وربما لم يكن فيها شىء من الحقيقة . ولم يكن أحد يعرف شيئا معرفة اليقين عن كل من جنفياف وبرنار ، وقد وصلت الى أبويها بطاقة بريد من مصر ولكن لم يكن عليها اى عنوان كما أن الأبوين لم يسمعا بعد ذلك شيئا منها أو عنها .

وكان لسانه ثقيلا وهو يمضى فى الممر المؤدى الى السلم الرئيسى واطل من هناك ورأى رجلين جالسين على الدرجة الأولى من السلم بسبب نقص الكراسى وحدق بالنظر اليهما بعض الوقت على نحو اكتسبه بعد خبرة سنين طويلة وبه تكون نظرته غامضة وثقيلة عسيرة

التفسير ولهذا السبب كانت تزعج الشخص الذى تقع عليه ثم صعد الى الطابق الثالث حيث استطاع ان يسمع اصوات الحركة .

ودخل الغرفة التى كان الرجل قد قتل فيها حيث كان المفتش بينيه قد تراجع ثلاث خطوات الى الوراء ليستطيع رؤية شيء ما هناك على نحو افضل فاصطدم بلورسا وأخذ يعتذر بعدة عبارات متلاحقة .

وكان معه رجال ثلاثة آخرون احدهم مصور معه كاميرا ضخمة مركبة على حامل ذى ثلاثة أرجل . ومضوا فى عملهم والسجائر مشتعلة بين شفاههم وهم يقيسون الأبعاد وينقلون قطع الأثاث ويبحثون فى كل ركن من الأركان .

وفحص لورسا ما يجرى فى هدوء ثم سأل :

ـ هل كان المدعى العام هنا هذا الصباح ؟.

ـ لا .. وما أظنه سيجيء . وقاضى التحقيق تحت فقد سلمت القضية له .

ـ أى قاضى تحقيق ؟.

ـ مسيو دوكد . وأظنه تحت الآن يقوم باستجواب أحد ما .. وأرجو أن تعذرنا ؟.

ـ فيم ؟.

ـ لأننا قلبنا بيتك رأسا على عقب ..

ومضى لورسا بعد أن هز كتفيه فقد آن له أن ينزل الى القبو لاحضار البيرجندى .

وكان البيت مليئا بالتيارات الهوائية الباردة والضوضاء غير العادية وكان غريبا أن يمشى المرء فى بيته ويلتقى فيه بمن لا يعرفهم فى كل ركن من أركان البيت وهم يمرون به غير عابئين بوجوده ويقومون فيه بعملهم وكأنما البيت بيتهم . وان دق جرس الباب أسرع أحد رجال البوليس لرؤية الطارق .

ولاشك فى أن خدم البيوت المجاورة قضوا نصف ساعات الصباح وهم يطلون من ابواب البيوت أو من النوافذ لرؤية مايجرى فى هذا البيت . وبعد بضع دقائق صعد لورسا من الطابق الاسفل وهو يلهث ولم يحاول أن يخفى مهمته التى كان قد ذهب من أجلها

الى القبو بل أمسك زجاجة بيد وزجاجتين باليد الأخرى وهو يمر بين رجال البوليس دون أدنى اهتمام بما قد يتوارد الى خواطرهم.

وبينما كان يمر بالصالون الكبير انفتح الباب وخرجت نيكولى منه. وكانت معتدلة القامة فى شبه تصلب ولكنها كانت تبالغ هذه المرة فى الظهور بمظهر خلو البال . وتوقفت بدافع الغريزة عندما رأت أباها . واستطاع ان يرى وراءها دوكد وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة التى كان يستخدمها لابعاد كل من يحاول أن يعتدى على كبريائه .

وازداد تعبير ابتسامته عن السخرية عندما وقع بصره على الزجاجات فى يدى لورسا . ونظرت نيكولى أيضا الى هذه الزجاجات . وظلت دقيقة يبدو عليها أنها على وشك أن تقول شيئا ولكنها غيرت رأيها ومضت دون أن تقول شيئا .

وقال دوكد :

ـ سيدى العزيز ...

كان فى الثلاثين من عمره ينسدل شعر رأسه الى الأمام متمالكا ارادته بارعا فى عمله فتقدم بسرعة وكان يبشر بتقدم أسرع وذلك بفضل زواجه من فتاة تمت بصلة القربى الى ثلاث على الأقل من أكثر العائلات نفوذا فى المنطقة .

ـ سيدى العزيز لقد قيل لى أنك لا تزال نائما فلم أشأ ان أزعجك .

ولم تزعج الابتسامة لورسا بل دخل الفرفة بهدوء ووضع الزجاجات على المنضدة وهى منضدة لابد أن يكونوا قد جاءوا بها خاصة لقاضى التحقيق اذ لم يعرف وجودها فى تلك الغرفة قبل ذلك .

وكانت الغرفة فسيحة وشبه عارية اذ كان أثاثها قليلا جدا بغض النظر عن المقاعد المذهبة المصطفة بجوار الجدران وتبدو كما لو كانت معدة لتكون حلبة رقص. ويبدو أن ارضها وهى من خشب الباركيه لم تنظف منذ وقت طويل وقد انقضت عدة أعوام منذ تلميعها آخر مرة . وكانت نافذتها الوحيدة مفتوحة ولم يكن بالمدفأة نار ولهذا احتفظ دوكد بمعطفه .

ونهض بسرعة كاتب قاضى التحقيق الجـــالس أمام كومة من الأوراق عندما دخل لورسا .

ـ لقد كلفنى المدعى العام تحقيق القضية وبدأت باســـتجواب ابنتك .

وكان لورسا متأكدا من احدى النقط ومصرا على أنه لم يشـأ أن يتم استجوابه فى تلك الغرفة . والقى حوله نظرة عاجلة كما لو كان يبحث عن مكان يضع فيه زجاجاته وان كان فى الحقيقة اكثر حاجة الى كأس يشرب بها خمره وأخيرا قال فى اقتضاب .

ـ تعال الى غرفتى .

وحمل زجاجاته وتقدم نحو الباب ..

وتساءل الكاتب عما اذا كان من المفروض ان يتبعها ودوكــد نفسه كان تائها بشأن ما يجب أن يتخذه من قرار . وكان لورســا هو الذى ناب عنه فى تقرير ما يجب. ونظر الى الكاتب وقال بلهجة حاسمة :

ـ سنرسل فى طلبك ان دعت الحاجة الى ذلك .

ولم يكن قد أشعل سيجارته بعد وكانت قد بقيت بين شفتيه طوال نصف ساعة .

وصعد الى أعلى وقاضى التحقيق فى أعقابه . ولما دخلا غرفة مكتبه اغلق الباب بقدمه ثم أعاد وضع الزجاجات . ولما استقر به المقام فى غرفته شعر بأنه فى حالته الطبيعية . وعطس ثم انتزع السداد من احدى الزجاجات وصب لنفسه كأسا. ثم رفع الزجاجة وقال لقاضى التحقيق :

ـ ما رأيك فى كأس ؟.

ـ لا أشرب الخمر فى مثل هذه الساعة من النهار أبدا واشكرك وفضلا عن ذلك ..

ثم غير موضوع الحديث بسرعة .

ـ تحدثت مع ابنتك حديثا طويلا استغرق منا الســـاعتين الاخيرتين . ونجحت فى آخر الأمر فى اقناعها بأنها ترتكب خطـأ كبيرا ان هى أخفت عنى ما تعرفه .

وظل لورسا متململا فى مقعده كالدب الذى يدور حول نفسه قبل ان يستقر فى جلسته وأخيرا وجد الوضع المناسب له وهــو

الوضع الذى يستطيع فيه تقليب النار بيد ويعيد ملء الكأس باليد الأخرى .

- ولست فى حاجة الى أن أقول لك يا سـيدى أنه عندما شرفنى المدعى العام فى هذا الصباح ...

كان العمل مع لورسا شاقا كصعود التل ولم يبدعليه أن ينصت ولكن عينيه كانتا تقولان :

- يالك من غبى !.

- وتحت ضغطه الشديد فحسب قبلت و ...

- سيجارة ؟.

- لا واشكرك ... ولقد كان واضحا منذ البداية أنه ان كان قد وجد رجل فوق فى الفراش فلابد أن يكون فى البيت واحدمايعرف شيئا عنه وبدأت من هذه النقطة وكان يجب على أن أختار ...

- اسمع يا دوكد ! هلا قلت لى ماذا أبلغتك اياه ابنتى ؟

- سآتى الى هذه النقطة . وأنا اعترف بأنى جعلت من مهمتى أن استخلص السر منها ولكنى لم أملك الا أن احترم امتناعها الذى سببه عدم رغبتها فى خيانة صداقة شخص ما ..

- انك تثير مللى يا دوكد ! لماذا لا تتكلم فى الموضوع مباشرة !.

ومع هذه العبارة اشتد غوصا فى مقعده . وبدأ يشعر بالدفء والخمر فى يد والمدفأة عند اليد الأخرى .

وفضل دوكد أن يتجاهل الكلمة النابية .

واستطرد يقول :

- ستفهم سر ارتباكى فيما بعد . انها نفس القصة القديمة تأخذ المظاهر على أنها حقائق ولاشك لدينا فى ان الحقيقة وراءهذه المظاهر هى شىء غير ذلك تماما . وأن تحت السطح شيئا ..

ووضع لورسا المنديل على أنفه وتمخط عدة مرات . وفعل ذلك متعمدا ليوقف قاضى التحقيق على الاستمرار فى ابداء ملاحظاته .

وتصلب عود دوكد بصورة ملحوظة .

- حسنا اذن ! قد تعرف كل المعرفة أن الآنسة نيكولى تعودت الخروج ليلا مع الأصدقاء . وفى ليال تأتى بأصدقائهـا الى داخل البيت .

وصمت لحظة تاركا لملاحظاته أن تفعل فعلها ولكن لورسا بدلا

من أن يرمش له هدب بدا عليه الابتهاج لسماع هذه الأخبار .
وسأله :
ــ أين ؟ فى غرفتها ؟ .
ــ بل فوق .. فى الغرفة الخشبية بالطابق الثالث التى اطلقوا عليها اسم « بار الفوضى » .
ورن جرس التليفون . ولم يرد على التليفون فورا بل غضب من استمرار الرنين وان كان من عادته دائما فى مثل هذه الحالات أن يستسلم ويرد .
ــ من ؟ أوه أهذا أنت يا جيرار ... نعم ... انه هنـــا معى الآن .. لا أعرف مزيدا . لقد بدأ .. هل تحب أن تتـــكلم معه ؟ حسنا . ها هو ذا .
وأمسك دوكد سماعة التليفون مرتعدا :
ــ نعم يا سيدى .. نعم يا سيدى ..
وكانت هناك لحظة سكون ثم نظرة الى لورسا .
ــ نعم . لقد كنت أقول له ذلك الآن .. معـــذرة ؟ . نعم يا سيدى .. كنت أقول له الآن ان جماعة من الشباب من أهل المدينة وبينهم الآنسة نيكولى تعودوا الاجتماع ليلا .. أحيانا فى بار قريبا من ميدان السوق وأحيانا فى بيته . نعم يا سيدى فى غرفة بالطابق الثالث ... لا ليست تلك الغرفة . بل غرفة أخرى ومنذ اسبوعين التحق بهذه الجماعة شخص جديد .. وعلى سبيل المزاح ملئوه خمرا ثم شجعوه على سرقة سيارة وقادها وهم فيها الى فندق على بعد عشرة اميال من المدينة ... فى مكان صغير يدعى «كوكيتو» .
ثم نظرة أخرى الى لورسا .
ــ نعم سجلت الأسماء .. هذا صحيح لقد فكرت فى هـــذا الأمر فورا ... ومما لا شك فيه أن السيارة الستروين هى سيارة سكرتير العمدة التى وجدها البوليس فى اليوم التالى وعليها بعض بقع دماء ... ماذا ؟ معذرة يا سيدى ... نعم لدى القائمة امامى .
ليت لورسا استطاع السكون . ماذا استبد به حتى جعـــله يجوب أنحاء الغرفة ؟ ليس هناك دافع يمكن ادراكه يمكن أن يدفعه الى هذا سوى جذب انتباه قاضى التحقيق الى واثارة عصـــبيته .
والقى دوكد عليه نظرات كانت فى أول الأمر تدل على الضـــيق ثم

أصبحت تنم عن التوسل ولكن لورسا استمر فى حركاته وهو ينفخ ويزمجر .

ـ اليك الأسماء يا سيدى .. أولها اسم ادمون دوسان .. نعم ابن شارل دوسان ... معذرة ؟ لا أستطيع الوثوق بهذا . فمن الصعب الحصول على معلومات خاصة بأيهم فعل ذلك ثم جول دايا ابن صاحب محل جزارة الخنازير فى شارع داليه .. هذا صحيح . ولقد كان فى نيتى أن أفحص هذا . وليس لدى فى اللحظة الراهنة اكثر من مجرد أسماء أخرى . يلى ذلك دستريفو وليس لدى اسمه الأول وهو يعمل كاتبا فى بنك الائتمان المركزى حيث يعمل أبوه صرافا هاللو !. هل أنت هناك يا سيدى ؟ واخيرا شخص يدعى لوسكا وهو من أصل أرمنى . هؤلاء هم أعضاء الجماعة حتى انضم اليهم الوافد الجديد واسمه روبير مانو . وأمه أرملة تعطى دروسا فى العزف على البيانو ... وعند عودة السيارة من الفندق النائى كان مانو يقود السيارة بجنون ولم يبد عليه أنه رأى الرجل الواقف فى الطريق على الرغم من أن الجميع راوه ... ووقع صدام . وأوقفوا السيارة وخرجوا منها .. وعادوا الى الوراء ووجدوا رجلا ملقى على الطريق .. نعم يا سيدى كانت الآنسة نيكولى معهم ...

وكان الرجل مصابا ولكنه كان حيا ويمكن ان يقول لهم أنهم سيقعون تحت طائلة القانون وانهم سيدفعون الثمن . ولم يعرفوا ماذا يفعلون ولكن الآنسة نيكولى كانت صافية الذهن فاقترحت احضار الرجل الى هنا .

نعم لم يطلبوا من مسيو لورسا الاذن بذلك بل لم يبلغوه شيئا عنه .

الطاهية ؟ .. نعم اخبرت فى اليوم التالى .. وسأسألها حالا .. كان ادمون دوسان هو الذى أحضر الدكتور ماتريه هنا .. وجد الدكتور ان ساق الرجل مكسورة وان بها جرحا طوله ثلاث بوصات .

نعم انه لا يزال هنا .

وكانت الاشارة هنا الى لورسا الذى كان قد توقف عن سيره وصب لنفسه كأسا أخرى من البيرجندى .

ـ أنا آسف . لم أحصل على هذا .. هنا بعض الضوضاء .. نعم سألتها عما اذا كانوا قد التقوا منذ الحادث . يبدو أنهم التقوا

مرة أو مرتين منذ الحادث ولكن على نحو مغاير للنحو الذى كانوا يلتقون عليه من قبل وهى تقول ان الرجل المصاب مثير للمتاعب ويكثر من الطلبات ...

وابتسم لورسا كما لو كان قد سره أن يعلم أن غريبا التقط من عرض الطريق عاش فى بيته اسبوعين دون أن يعرف شيئا عنه هذا اذا اغفلنا أمر زيارات الطبيب « كان زميل ماتريه فى الدراسة » والحفلات الليلية الصاخبة التى أحياها أولئك الشبان واحدهم ادمون دوسان وهو ابن اخته الدائمة الشكوى والتذمر. ذلك الشاب الذى لم يكن فى استطاعته أن يحتمل قط بأى ثمن .

ــ نعم يا سيدى . لقد اهتممت بذلك بصفة خاصة ولا بد لى من القول بأنها كانت تجيب . عن اسئلتى بصراحة مطلقة . وقد اعترفت بأن روبير مانو جاء لزيارتها فى الليلة الماضية . وهذا الشاب هو الذى تقوم أمه باعطاء دروس فى البيانو وهى تعطى نيكولى دروسا فى البيانو .. هاللو ؟ هاللو ؟ .. لقد انقطعت المكالمة التليفونية ! هل انت هناك يا سيدى .. آه ! هذا فضل ! هل سمعت ما قلت ؟ نعم لقد صعدت هى ومانو لرؤية المريض وبعد ذلك نزلا الى غرفتها ..

وألقى نظرة مرتبكة على لورسا الذى تلقى هذه النظرة بأكبر نصيب من الهدوء . وبدلا من أن يبدو عليه الضيق بدا عليه الابتهاج .

طبعا .. لقد ادهشنى ذلك كثيرا .. نعم هناك هذا الاحتمال من الممكن ادراك هذا . نعم فقد سبق لى فى احدى قضاياى أن وجدت سيدة شابة تعترف بأشياء لم تقترفها قط ... ولكن ـ قد أكون مخطئا ـ ولكنها اعطتنى الانطباع القاطع بأنها كانت تقول الحقيقة ... وهناك شيء قالته بصفة قاطعة وهو أن زائرها تركها قبيل الساعة الثانية عشرة بثلث ساعة . ولم توصله وهو فى طريقه الى الخروج .

وأبدى روجيسار فى الطرف الآخر من الخط التليفونى ملاحظة ابهجت دوكد الذى لا يبتهج أبدا .

واستطرد يقول :

ــ نعم حقا يبدو الناس داخلين فى البيت وخارجين منه كما لو كانوا

يفعلون ذلك في محطة سكة حديد . والباب الخلفى الذى يطل على حارة المدابغ لا يغلق ابدا فيما يبدو . ويستطيع أى واحد أن يدير مقبضه ويدخل على الفور .. وهى تقول انها سمعت طلقة المسدس بعد خروج مانو ببضع دقائق ... وترددت متسائلة ماذا يكون أمر هذه الطلقة وماذا يجب عليها ان تفعله . وقبل أن تستقر على رأى ظهر ابوها ... نعم هناك كثير من الأشياء لابد من مراجعتها ... نعم يا سيدى سأقول لهم ..

وأعاد دوكد السماعة الى مكانها ونظر الى لورسا بهيئة الرجل الذى وجد ما يعتمد عليه الى حد ما .

ـ لقد طلب منى المدعى العام أن اقول لك انه فى شدة الحزن من كل ما حدث وسيبذل قصارى جهده فى ابعاد اسم الآنسة نيكولى عن أن تتناوله الصحف وقد سمعت ما قلته له ولا اظن انه بقى لدى شيء يمكن أن اضيفه الى ذلك وانا اشارك المدعى العام وجهة نظره الى القضية فهى قضية دقيقة محرجة وشديدة الايلام لنا جميعا .

ـ لكم أكون مقدرا لصنيعك لو أنك أعطيتنى اسماء وعناوين المذكورين فى قائمتك .

ـ ليست لدى الأسماء الكاملة الخاصة بكل منهم ولا العناوين الكاملة . وهذا هو كل ما قالته ابنتك لى ... والآن اطلب منك باسم المدعى العام أن ترد على استجوابى . فقد وقع الحادث فى بيتك على كل حال ..

وكان لورسا قد فتح الباب وأخذ يصيح فى الردهة :

ـ ارسلوا كاتب قاضى التحقيق .

ولما لم يرد عليه أحد مضى نحو السلم .

ـ هاللو ! الا يستطيع أحد سماع صوتى ؟ ارسلوا كاتب قاضى التحقيق .

ومما لا شك فيه أن روجيسار كان فى تلك اللحظة يتصل تليفونيا بمدام دوسان وكانت هذه من غير شك مضطجعة على أريكة وهى بثوبها الحريرى الأصفر اللون . ويبدو عليها أنها مهتمة طبعا ويبدو عليها أيضا أنها عليلة الصحة فلا تستطيع أن تشغل وقتها بأكثر من وضع الازهار فى آنيتها .

لم تكن تشبه أخاها لورسا أية مشابهة . كانت أرق أعضاء الأسرة وأكثرهم دماثة خلق . وكانت قد تزوجت من دوسان الذي حقق من النجاح ما جعله يبدو مثلها أناقة ودماثة خلق . وقد بنيا لنفسيهما أكثر البيوت فخامة وروعة في مولان وكان هذا البيت من البيوت القليلة جدا التي فيها رئيس خدم يضع يديه في قفاز أبيض .

وكان لورسا يسمع روجيسار يقول :

ـ هاللو ! لقد حدث شيء رهيب جدا يا عزيزتي .. ولكن قبل كل شيء كيف حالك ؟.. يا للأسف ! انا آسف جدا .. واخشى أن يكون فيما اقوله لك ضربة شديدة لك ... الحكاية هي ان ابنك .. نعم طبعا .. اننا سنبذل قصارى جهدنا .

وبعد أن ضغطت زر الجرس لخادمتها لاشك في أنها تهادت في راحة بين الوسائد والأزهار .

ـ هل استدعيتني يا سيدي ؟.

ـ نعم .. أريد منك أن تأخذ أقوال مسيو لورسا .

وقال لورسا :

ـ اسمي هكتور دومينيك فرانسوا لورسا دي سان ـ مارك . محام . عضو نقابة المحامين في مولان .. السن ٤٨ سنة زوج جنفياف لورسا واسمها عند مولدها جروسيلير لا يعرف لها عنوان الآن .

ورفع الكاتب راسه متسائلا عما اذا كان من واجبه أن يكتب الكلمات الأخيرة .

وشجعه لورسا قائلا :

ـ استمر .. اكتب .. ولا أعرف عن حركات ابنتي أكثر من انها تعودت أن تتناول وجبات طعامها معي كالعادة خلال الاسبوعين الماضيين ولا أعرف شيئا عما كان يجري في بيتي سوى ما كان يجري في الغرفتين الخاصتين بي . واستطيع أن اضيف الى ذلك أني اعتبر ما يجري في الانحاء الأخرى من بيتي أمورا لا تهمني ...

ـ وفي الليلة الماضية أي ليلة الاربعاء وهو اليوم الثامن من اكتوبر والتي يعقبها الخميس وهو اليوم التاسع من نفس الشهر سمعت صوت ضوضاء غير عادية بدت لي كصوت طلقة مسدس .

وقمت بتحقيق الموضوع وأيقظت ابنتى وصعدت معها الى الطابق الثالث حيث فتحت باب احدى الغرف فوجدت رجلا راقدا فى الفراش وكان لا يزال حيا عندما فتحت الباب عليه ودخلت الغرفة ولكنه مات بعد بضع ثوان ولم يكن من اختصاصى ان أحدد سبب وفاته . وليس لدى ما أقوله أكثر مما قلته .

ونظر الى دوكد الذى كان يتململ فى مقعده .

ـ سيجارة ؟.

ـ لا وشكرا .

ـ كأسا من البيرجندى ؟.

ـ قلت لك أنى ...

ـ انك لا تشرب فى مثل هذه الساعة من النهار . وهذا أمر من سوء حظك ! والآن ...

وقطع كلامه وانتظر بصورة توضح بجلاء أنه يعتبر تحقيقه قد انتهى وأعرب عن رغبته فى أن يترك وشأنه .

وقال دوكد وهو يبذل قصارى جهده فى أن يكون خروجه من الغرفة على أحسن نحو ممكن :

ـ معذرة فانى سألقى على طاهيتك بضعة أسئلة أما بالنسبة للخادمة التى تركت العمل عندكم فى الليلة الماضية فأننا نبحث عنها الآن . وانك لتفهم أكثر مما يفهم أى واحد آخر ...

ـ اكثر مما يفهم أى واحد آخر .. نعم !

ـ ارسل المفتش بينيه صـــورة الرجل الميت الى باريس مع بصمات اصابعه .

وتمتم لورسا قائلا دون سبب خاص يدعوه الى ذلك :

ـ مسكين بينيه !.

ـ انه ضابط واع . أؤكد لك هذا .

ـ نعم .. نعم .. شديد الوعى .

ولم يكن قد أفرغ الزجاجة الأولى بعد ولكنه كان قــد شرب كفايته على كل حال بدرجة تبدد السحب التى جعلت بواكير النهار مظلمة كئيبة .

ـ هل من الممكن أن ...

ـ أي شيء اردت .
ـ ولكن ...
ولكن لورسا كان قد سئم الرجل ففتح الباب .
وقال دوكد :
ـ يجب ان تعترف بأني فعلت كل ما استطيع .
ـ نعم يا مسيو دوكد .

حتى عبارة مسيو دوكد استطاع أن يقولها بلهجة ازدراء.
وقال دوكد :
ـ أما رجال الصحافة فأنا واثق من أنك سوف تهتم بأمرهم .

وكان من الأفضل لقاضي التحقيق ولكل من عداه ان يسرع بمبارحة الغرفة اذ أنه كان من المحتمل أن يصدر عن لورسا في أية لحظة أي شيء مثير للغضب .

وصافحهما لورسا مصافحة قصيرة وأغلق الباب وراءهما بالمزلاج .

وبعد أن أغلق لورسا الباب تنهد تنهد الارتياح ثم تجهم وجهه عندما تبين أن دوكد قد ترك في الغرفة رائحة العطر الذي يعطر به شعر رأسه وهي رائحة كريهة عند لورسا .
اذن فقد كانت نيكولي ...

وقلب النار في المدفأة باهتمام وجعل اللهب يتأجج فيها .
نيكولي ...
ودار في أنحاء الغرفة . وملأ كأسه حتى حافتها وشربها واقفا في جرعة واحدة ثم جلس وهو ينظر الى الورقة التي كان قد كتب عليها الاسماء التي ذكرها دوكد .
نيكولي
كان يراها تلميذة ناضجة والآن ....
وسمع صوت سيارة تمضي ربما كانت تحمل دوكد . ولكن الم يقل انه سيستجوب جوزفين . وعلى كل حال ما اهمية ذلك ؟ ان ذهب واحد حضر آخر . ان البيت يعج بهم جميعا .
ولكن نيكولي ؟.... ماذا يمكن عمله الآن .

- ٢ -

كادت الساعة تبلغ الواحدة . وكان لورسا قد دخل غرفة المائدة على مهل وهناك وجد جوزفين تعد المائدة وكانت حركاتها وملامح وجهها تكشف عن شعورها بالضيق .

وقرر أن يبقى هناك لغير ما سبب خاص ووقف وظهره الى نار المدفأة الضعيفة التى يتصاعد الدخان منها .

وكان عمله هذا لم يسبق له أن عمله فزاد هذا من شعورها بالضيق وبعد أن قامت بثلاث أو أربع حركات تنم عن العجلة أخرجت السكاكين والشوك من درج الدولاب ووضعتها على المنضدة بعنف وبصوت مسموع ولما لم يؤد هذا الى النتيجة التى تريدها قالت :

ـ هل دققت جرس المائدة ؟.

ونظر اليها بشيء من الدهشة . أدهشه أن يرى كم هى صغيرة ضئيلة وقبيحة وغير مقبولة ولم يكن بعيدا عن التساؤل كيف وجدت فى هذا البيت ولاحظ فى نفس الوقت ان الدرج الذى أخرجت منه السكاكين والشوك كان فى أيامه يستخدم لحفظ الفوط والمفارش.

فى أيامه ! كان هذا يعنى أياما انقضى عليها ثمانية عشر عاما أو تزيد وخطر له أنه لم يلاحظ طول هذه الأعوام أى تغيير .

كان فى الايام السابقة ينتظر رنين الجرس وحتى عندما يرن الجرس نادرا ما كان يستجيب للرنين فورا. واحيانا قد ينقضى ربع ساعة قبل أن يستقر رأيه على وجوب التحرك وعندما يصل الى غرفة المائدة يجد نيكولى تملأ الوقت بالقراءة انتظارا لقدومه .

وعندما يظهر تضع الفتاة الكتاب جانبا دون أن تقول كلمة وتنظر الى الخادمة نظرة هى اشارة البدء بتقديم الطعام .

والآن وللمرة الأولى يكون هو أول الحاضرين الى المائدة . واستغرق لحظة لم يفهم خلالها لماذا جاءت جوزفين من المطبخ لتعد المائدة ثم تذكر أن الخادمة التى من مهامها اعداد المائدة تركت البيت فى الليلة السابقة .

وكان كل شيء غريبا وانه ليعجز تماما لو أنه حاول معرفة كنه موضع الغرابة . لقد أحس الحيرة فى كل ما يحيط به . ها هو ذا فى بيته الذى فيه ولد والذى فيه عاش منذ مولده يحس غرابة فى

أن يدق الناقوس كما يدق فى أحد الاديرة لمجرد استدعاء شخصين لتناول الطعام .

وخرجت جوزفين من الغرفة دون أن تلقى عليه أية نظرة أخرى فقد كانت تكرهه بكل ما فيها من قوة ولم تحاول قط يوما ما اخفاء شعور الكراهية . فقد كانت تقول لنيكولى :

ـ أبوك القذر .

ودق الناقوس وظهرت نيكولى وقد بدا عليها الهدوء التـــام والسمو وكان من يراها لا يستطيع أن يظن أنها قد اجتــازت توا استجوابا رسميا استغرق ساعتين تقريبا .

ولم تذرف دمعة واحدة . والآن وهى تدخل الغرفة بدت وكأنما قد طردت الموضوع كله من خاطرها . والقت نظرة على المائدة لترى ما اذا كان كل شيء فى مكانه وذهبت الى الـكوة المطلة على المطبخ وقالت :

ـ نحن مستعدان يا جوزفين .

وبدت نيكولى الآن فى ناظرى لورسا كأية ربة بيت . ان نيكولى هى ربة البيت ولم يسبق له أن رآها فى هذا الضوء من قبــل . والآن لم تعد فى البيت خادم تقوم على خدمتهما فى أثناء تنــاول الطعام قامت هى بنفسها بعمل هذه الخادم تحمل الصــــحون الى المائدة قبل أن تأخذ مكانها منها .

بدون أن تقول كلمة وبدون أن تلقى نظرة على أبيهــا وبدون أن تبدو عليها أية أمارة لفضول بشأن ما حدث جلست ساكنة .

وبذل قصارى جهده فى أن يتظاهر بأنه عادى لم يطرأ عليــــه تغيير واكل وشرب بصوت مسموع ونثر على ثيابه من رشاش الماء أكثر مما تعود ان يفعل ولكن لم يسفر هذا عن أية نتيجة يرجوها ولم يستطع أن يحول دون تركز أفكاره فى نيكولى . كان فى الأيام الاخرى ينظر اليها فلا يراها . أما الآن فانه شعر برغبة ملحة فى أن ينظر اليها . وكان يشعر بالخجل من فعل ذلك جهرا فاكتفى بأن يسترق منها النظرات من وقت لآخر .

وكان بوده ان يكلمها وأن يتبادل معها بعض العبارات أيا كانت هذه العبــارات وأيا كان موضــوعها لمجرد أن يسمع صــوتها هى لا صوت ملعقتها وشوكتها وسكينتها كما يفعل الآن .

وقامت الى الكوة المطلة على المطبخ ونادت :

ـ هات الصحن التالى يا جوزفين ..

ولاحظ لورسا أن نيكولى تميل الى البدانة بعض الشيء وكانت هذه الملاحظة أشد ما أثار دهشته . ولم يكن مبعث هدوئها الخمول فقد كان هذا الهدوء منطويا على قوة .

وأخرج من جيبه الورقة التى كانت عليها الأسماء التى ذكرها دوكد صباح ذلك اليوم . وقال :

ـ ماذا يفعل روبير مانو ؟...

وشعر بالحرج ازاء تحطيم الصمت الذى أســــتمر كل تلك السنوات العديدة وأوشك أن تغمر حمرة الخجل وجهه . ولم يكن الأمر مجرد خروج على تقليــــد بل كان كشــــفا وخروجا على شخصيته .

وكان أول ما فعلته هو أن نظرت اليه بعينيها الواســعتين فى عجب ثم نظرت الى قطعة الورق وفهمت .

ـ يعمل فى مكتبة جورج .

وانقضت لحظة بدا فى أثنائها انهما على وشك بدء محـــادثة حقيقية . وكان من المحتمل فعلا أن يبدأا هذه المحادثة لو انها زادت على هذا القول شيئا .

ولكنها اكتفت بالرد على سؤاله . ولكى يغطى ارتبــاكه حدق بالنظر الى الورقة وهو يمضغ طعامه بصوت مسموع .

وكان من عادته أن يخرج فى نزهة قصيرة مشيا على الأقدام فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وفى هذه المرة ما كاد يخطو خطوتين حتى خرج على التقاليــد مرة أخرى . اذ توقف واستدار عند ناصية الشارع وأخذ يتــأمل بيته .

ولم يكن ممكننا معرفة ما يدور بخاطره أو ما اذا كان تفــكيره مرضيا أم لا يبعث على الرضا ولكن كان هناك شيء واحد محــدود وهو أن هذا التفكير غير عادى . انه يرى بيته .

رآه كما كان يراه وهو طفل أو وهو شــــاب عائد من باريس ليقضى فيه عطلته السنوية وكان وقتئذ يدرس القانون فى باريس .

ولم تكن الذكرى قد أهاجته اذ ليس بالرجل الذى تهيجــــه

الذكريات ولكنه فكر في أمر أولئك الشبان وهم يجتمعون في احدى غرف الطابق الثالث من بيته . لابد أن يكونوا قد اضاءوا مصباحا ما أو بعض المصابيح ولو فعلو ذلك لتسربت بعض أشعة الضوء من النوافذ .

وذلك الباب الخلفي الذي لم يغلق قط في يوم من الأيام ... أما كان الجيران يلاحظون الناس المتسللين داخلين وخارجين ؟.

ونيكولى في غرفة نومها مع ذلك .

واضطر الى مراجعة قائمة الاسـماء . مانو ! روبير مانو ! انه اسم شخص يشابه تماما الشبح الذي رآه على السلم . الشـاب الذي يرتدى معطفا من الماكنتوش .

وعندما كان هذان الاثنان وحدهما في غرفتهما هل ...؟

ومضى مطأطىء الرأس وقد أمسك احدى يديه بالأخرى وراء ظهره وعلى حين فجأة توقف امام فتاة صغيرة تحدق بالنظر اليه . لا بد أنها احدى بنات الجيران . ولقد كان يوما ما يعرف المقيمين في كل بيت من بيوت الشارع ولكن انقضى على ذلك الوقت زمان طويل . ومنذ ذلك الوقت انتقل الكثيرون من هذا الشارع ومات آخرون ولابد أن يكون قد ولد قوم جدد !.

ولابد أن تكون هذه الفتاة الصغيرة واحدة ممن ولدوا . لماذا بلغ بها اهتمامها به هذا الحد ؟ هل تخافه ؟.

ربما قال أبواها لها انه رجل شرير او انه غول .

ومضى قليلا ثم ادهشه ان يجد نفسه يتمتم قائلا :

ـ اذن فهى تتلقى دروسا في البيانو ؟.

وكان تفكيره قد عاد به الى نيكولى . وكان بين لحظة وأخرى يسمع صوت عزف بيانو في البيت ولاءم هذا فكرته عن نيكولى كفتاة كاملة النضج ألم تتعلم الفتيات في المدارس العـزف على البيانو ؟ افترض ذلك .

ولكنه لم يحلم قط بأن تكون قد درست الموسـيقى بل انه لم يعرف عنها انها تحب الموسيقى ... كيف اختارت هذا المعـلم بالذات ؟ هل يفضل أحد المعلمين الآخر في ذلك ـ ربما كانت مدام مانو ـ تذكر الاسم هذه المرة ـ ربما كانت مدام مانو هى تلك المرأة

ذات الشعر الأشهب التى كان يمر أحيانا فوق السلم وتنحنى له محيية احيانا .
وكان الامر كله غريبا وزاد من غرابته ملاحظته انه وصل الآن الى شارع آلييه وكان هذا الشارع خارج نطاق جولاته . وتبين ذلك عندما وجد نفسه يحدق بالنظر الى مكتبة جورج وهى حانوت من الطراز القديم الكئيب كما انها مظلمة فى داخلها الى حد تبدو معه للنظرة الأولى مغلقة .
ودخل المكتبة وعرف جورج العجوز صاحب المكتبة . وكان عجوزا عندما كان لورسا صبيا وهو الآن شديد التبرم قليل الصبر شأنه فى ذلك شأن لورسا نفسه . وكان يضع على رأسه قبعة الرعاة وزاد من مظهره المنفر ذلك الشارب المفتول الفزير الشعر والحاجبان الكثيفان وكأنهما حاجبا كليمنصر .
وكان واقفا وراء مكتب عال يكتب ولم يتطلع ليرى من القادم على حين كان فى مؤخرة الحانوت شاب فوق سلم خشبى حيث صفوف الكتب الكثيرة .
وتقدم فى أول الأمر الى الامام بطريقة طبيعية جدا وكان شابا عاديا من أولئك الذين يجدهم المرء عادة فى المكتبات . ولم يكن قد اكتمل نموه بعد . وكان نحيف العنق اشقر الأديم أصفر الشعر وتنقص ملامحه الحزم .
ثم توقف فجأة اذ عرف المحامى . وربما أشار أحد ما من الطريق اليه أو ربما رآه فى بيته . وشحب لونه وقد توتر عوده من قمة رأسه حتى اخمص قدمه ونظر هنا وهناك متطلعا الى منفذ يهرب منه .
واندهش لورسا وهو ينظر الى الفتى بشدة على حين سأله هذا
ــ ماذا تريد ــ ماذا استطيع ان ــ .
ولم يستطع اتمام عباراته فقد توتر حلقه وأخذت حنجرته فى الارتفاع والانخفاض بسرعة فوق ربطة العنق الزرقاء الشاحبة .
واندهش صاحب المكتبة العجوز ورفع رأسه .
وزمجر المحامى قائلا :
ــ اعطنى كتابا أيها الشاب .
ــ أى كتاب يا سيدى ؟ .

ـ أى كتاب شئت .
وتدخل صاحب المكتبة فى الحديث قائلا :
ـ أره المطبوعات الأخيرة .
واندفع الفتى بسرعة وكاد يتعثر فى كومة كتب . وكان فى حقيقة الأمر غلاما نحيفا كالفروج الذى نضج قبل الاوان . كلا لم يكن فروجا بل كان عصفورا بدأ يأخذ نفسه مأخذ الجد .
وكان هذا الفتى هو الذى قاد السيارة فى تلك الليلة .
وغضب لورسا من نفسه لأنه يفكر فى هذا الموضوع . لماذا يهتم بهذا الموضوع ؟ لقد ظل ثمانية عشر عاما حازما . والآن لمجرد قصة سخيفة ...
ـ هذا يكفى . سآخذ هذا الكتاب ... كلا لا حاجة بك الى لفه .
وكان يتكلم باقتضاب وجفاء .
ـ كم ثمنه ؟.
ـ ثمانية عشر فرنكا يا سيدى . سأعطيك غلافا له .
ـ كلا لا أريد .
وخرج من المكتبة ودس الكتاب فى جيبه وشعر بحاجته الى كأس من الشراب . وكاد لا يتعرف على شارع آلييه على الرغم من انه الشارع الرئيسى فى مدينة مولان. فمثلا كان هناك حانوت تاجر المسدسات وبجوار هذا الحانوت وجد لورسا سوقا محددة الاسعار فوق الوصيف ووجد فيها أكواما من الجبن فى جانب ومطبوعات الأغانى فى جانب آخر وتتدلى فوق رأسه مصابيح كهربية تلقى أضواء باهرة على تلك السلعة المتنافره .
ومضى قليلا فى الشارع ووجد حانوت قصاب يبيع لحم الخنزير وللحانوت ثلاث نوافذ زجاجية فى واجهة من الرخام وتطلع الى اللافتة التى كتب عليها « ذايا القصاب » .
دايا ! كان هذا الاسم بين الاسماء المذكورة بالقائمة التى بيده وهو آحد الذين يترددون على منزله فى أوقات غريبة بالليل .
هل يعمل فى الحانوت ؟ وتطلع لورسا داخل الحانوت ليرى . كانت هناك جماعة من الفتيات يرتدين الثياب البيضاء وهن فى نضرة الشباب وتورده يرحن ويجئن داخل الحانوت مسرعات سرعة

غير معقولة . وكان هناك رجل يرتدى سترة مخططة ومئزر أبيض .
كلا ! لا يمكن أن يكون هو . كان متورد الوجه بدينه بلا عنق تقريبا
ولا يمكن أن تقل سنه يوما واحدا عن الأربعين عاما .. آه ! هناك
شخص آخر ! انه شاب لون شعره كلون النبيذ ويرتدى مثل ثياب
الرجل البدين وكان منهمكا فى قطع شرائح السجق .

ولاشك فى أن التجارة فى هذا الحانوت رائجة . وهل يمكن أن
تأكل مدينة صغيرة مثل مولان كل هذا القدر من اللحم ؟ .

ما هو البار الذى قيل ان هؤلاء الشبان يجتمعون فيه ؟ لم يكن قد سجل اسم البار ولكنه تذكر انه قريب من السوق فى حى وضيع ضيق الشوارع .

ودخل أحد هذه الشوارع . بار الملاكمة . انه هو . وقد استطاع أن يتذكر ذلك الآن . واجهة صغيرة بها نافذة مغطاة بقماش الدانتلا من الداخل وستائر توحى بجو ريفى وكانت الغرفة بالداخل صغيرة ليس بها سوى منضدتين من خشب البلوط ومقاعد من هذا الخشب وفى الصدر بار صفت امامه المقاعد العالية .

وكان البار خاليا ودخله لورسا كالدب فى ضيق حلقه وعدم ثقته ونظر الى صور الممثلين والملاكمين الملصقة بالمرايا فى اشمئزاز ثم الى المقاعد العالية ثم الى زجاجات الخمر .

وأطل رجل من وراء منضدة البار وكأنه عفريت . وكان يرتدى سترة بيضاء وكان يمضغ شيئا فى فمه . ونظر الى المحامى وتجهم والتقط فوطه ثم تمتم قائلا :

ـ ماذا تريد ؟ .

فهل عرف هو الآخر لورسا ؟ هل عرف هو الآخر ما حدث ؟ ان الأمر بالتأكيد يبدو كذلك .

وبدا من تحطيم أنفه ومن جبينه المنحدر الى الوراء أنه كان فى يوم ما ملاكما .

ـ هل لديك نبيذ أحمر ؟ .

ورفع الرجل وهو لا يزال يمضغ شيئا فى فمه احدى الزجاجات الى الضوء ليرى ما اذا كان فيها شىء ثم صب منها شيئا فى كأس والملل مرتسم على وجهه . وكان فى النبيذ طعم الفلين . ولم يصدر

من لورسا أى تعليق ولم يوجه الى الرجل أية أسئلة . ثم بارح البار
ثم الحى كله ووصل الى بيته وهو فى حال نفسية سيئة .

ولابد أن يكون قد صعد فى السلم اذ انه وصل الى الطابق الأول
ولكنه لم يدرك أنه فعل ذلك وأضاء نور الردهة وشعر بشىء ثقيل
فى جيب معطفه وتبين انه الكتاب الذى كان قد اشتراه .

وقال :

ـ احمق !.

وكان فى لهفة الى العودة الى وكره وان يغلق عليه الباب الذى
يفصله عن العالم ولكنه توقف على عتبة الباب وتجهم وقال :

ـ ماذا تفعل هنا ؟.

مسكين المفتش بينيه . فانه لم يكن ينتظر مثل هذا الاستقبال .
واسرع بالوقوف على قدميه وأخذ فى الاعتذارات ولديه منها الشىء
الكثير المعد من قبل . وكانت جوزفين قد ادخلته الغـــرفة وكان
الوقت نهارا . وتركته لمصيره فبقى هناك وكانت قبعته على ركبتيه
والوقت يمر به من نهار الى غسق الى ليل .

ـ لقد خطر ببالى أن أبلغك الأمر ... طالما أن الجريمة وقعت
فى بيتك ... وارجو ألا أكون مزعجا لك .

والقى لورسا نظرة على المدفأة وعلى زجاجات البيرجندى وعلى
السجائر وتشمم رائحة المكتب المألوفة لديه ليتأكد من أن هـــذا
المكتب لم يعبث به احد .

ـ حسنا ! وماذا كشفت ؟ . هل لك فى كأس ؟.

ـ بكل سرور .

وكان لورسا قد عرض هذا العرض كمجاملة لابد منها فجاء
قبول المفتش مثار دهشة له . وتبين المفتش انه أخطأ عندما رأى أن
المحامى لم يستطع العثـــور على كأس أخرى فى الدولاب واسرع
بالقول :

ـ أرجوك لا تزعج نفسك .. فالأمر لدى سواء ..

ولكن لورسا لم ينصت الى قوله . لان الرجل قبل الكأس التى
عرضها عليه . حسنا لابد أن يأخذ الكأس حتى لو أدى هـــذا الى
احضار الكأس من المطبخ .

ولم يكن سهلا العثور على كأس . ولكن المحـــامى عاد بكأس وملأها حتى الحافة .

ـ اليك الكأس !. ولكن ماذا كنت تقول ؟.

ـ اردت ابلاغك بما تم حتى الآن . وفضلا عن ذلك فانك قد تستطيع مساعدتنا وقد اتصلت بباريس منذ لحظة . وقد عرفوا الرجل الميت وهو شخص غير مرغوب فيه وهو مشهور باسم لويس الضخم وسأقدم لك بيان أوصافه كما ذكرت لى وباختصار لقد ولد فى قرية كانتال . ولما بلغ السابعة عشرة من عمره عمل فلاحا عنـد أحد المزارعين ولما اتهمه هذا المزارع بانه مخمور ضربه بالجاروف عدة مرات حتى كاد يقتله .

ولهذا السبب وضع فى اصلاحية حيث ظل اربع ســـنوات وهم ينظرون اليه على انه شخص شرير ثم أفرج عنه منذ ســنتين وطوال هاتين السنتين وهو فى مشاكل متصلة مع البوليس .

انه ضيف آخر من ضيوف لورسا ظل فى بيته اسبوعين دون أن يدرك رب البيت طبعا شيئا عن وجوده .

ولم أر بعد أى واحد من الشباب الذين لهم علاقة بالحـادث ويريد مسيو دوكد منى أن أتولى التحقيق بنفسى معهــم واحدا واحدا . ولكنى تحدثت مع الدكتور ماتريه الذى لم يخف عنى شيئا قط مما يعرفه وان لم يضف بهذا القول كثيرا الى ما كنا نعــرفه فعلا . قال ان ادمون دوسان هو الذى استدعاه الى هنا وطلب اليه مراعاة السرعة المطلقة . وجاء ووجد لويس الضخم وهويعانى من جراح باللفة . وضمد الساق المكسورة وضــــمده كله ثم زاره ثلاث مرات وفى كل مرة كانت الآنسة نيكولى هى التى تستقبله. وحضر زيارتين من هذه الزيارات روبير مانو .

وكان لورسا فى هذه اللحظة قد استعاد سلوكه العادى . وبدا عليه الملل والكبرياء والازدراء .

واهم نقطة فى القضية هى عدم وجود أدنى شك فى أن لويس الضخم قد قتل برصاصة اطلقت من مسدس سعة فوهتــه ٦ر٣٥ مليمتر وقد عثرنا على ظرف الرصاصة ولكننا لم نعثر بعــد على المسدس نفسه .

وقال لورسا كما لو كان على علم وثيق بالموضوع ؟

ـ أخذه معه .
ـ نعم ؟ وأخفاه في مكان ما . على كل من المؤسف اننا لم نجده فان العثور عليه يساعدنا كثيرا .
ونهض المفتش .
وقال :
ـ لا أرى شيئا يمكن أن نعمله هنا . ولكن ان شئت منى أن أبلغك .
وبعد أن أنقضى على ذهاب الرجل خمس دقائق قال لورسا لنفسه :
ـ ياله من رجل عجيب ! لماذا جاء الى هنا ؟ انه لم يقل لى شيئا كثيرا !.
ونظر الى مكتبه ثم الى المدفأة ثم الى الزجاجة التى لم يبق بها سوى نصفها ثم الى المقعد المريح الذى كان المفتش جالسا عليه وأخيرا جر نفسه جرا من كل هذه الأشياء وهو يتنهد وفتح الباب ومضى يستكشف بنفسه .
وما كاد يصل الى السلم الرئيسى للبيت حتى قفزت امام انجيل الخادمة التى كانت قد بارحت البيت فى اليوم السابق وبدا له أنها ظلت جالسة هناك تنتظر وقتا طويلا كما انتظره المفتش بينيه فى المكتب من قبل . وكانت متزينة تزينا مبالغا فيه ومرتدية ثياب الخروج .
ـ قل لى ! هل هى ستراني أم لن تراني ؟.
ولم يكن لورسا يتوقع منها هذا قط وشعر بارتباك وكان اشد ما أذهله تلك اللهجة العامية السوقية فى حديث الفتاة وهى سوقية لم يخطر بباله أى احتمال لأن تتصف الفتاة بها وهو يراها تروح وتغدو بين غرفة المائدة والمطبخ تحمل الصحون .
ـ كم ستعطوننى ؟.
وبدا لها أنه لم يفهمها فاستطردت تقول :
ـ أظنك مخمورا مرة أخرى . كلا . اننا مازلنا فى أوائل النهار وهو وقت لا يجوز فيه الشراب . لا يخطرن ببالك قط أنى سأتنازل عن شىء من حقى ولن تستطيع أن تخيفنى بعينيك الواسعتين كما تستطيع ابنتك أن تفعل بكبريائها . اذهب الى البيت ثم ماذا يحدث؟

يأتى البوليس الى ويجرنى منـــه كما لو كنت لصـــة عادية .
ويحتجزوننى فى المحكمة ســـاعة كاملة بدون طعـــام . وذلك
كله بسبب ابنتك وخروجها من البيت كل تلك الســـاعات من
الليل ..

وكان اهتمامه بنفس الكلمات اقل من اهتمامه بايقاعهـــا وما
نمت عنه من كراهية وظل تائها فى عجب من التناقض بين المخلوقة
الواقفة امامه والفتاة التى يذكرها بثوبها الاسود ومئزرها الأبيض .

ـ أظنك لا تعرف أهل القرية . هل تظن أنهم يصـــدقون أن
البوليس جاءنى بدون شىء ؟ ولا يستطيع أحد ان يعـــرف كيف
سيتطور حديث القرية هذا هو ما سأحاسبكم عنـــه . وانتم أغنياء
على الرغم من أنكم تعيشون عيش الخنازير ..

وأصابت كلمات « تعيشون عيش الخنازير » هدفها . ونظر
حواليه وفى عينيه نظرات مضطربة .

ـ قل لى .. ماذا ستعطينى ؟.

ـ ماذا قلت لقاضى التحقيق ؟.

ـ قلت له كل شىء ! قلت له كل ما يحدث هنا . الأشياء التى
لا يستطيع أن يصدقها أى شخص عاقل لو لم يحدث هـــذا الذى
حدث . وأنا نفسى لم أكد اصدقها عندما جئت الى هنا . ظننتكما
مجنونين . بل أنتم الثلاثة مجانين لأن تلك الساحرة العجوز المقيمة
تحت ليست دونكما فى هذا الجنون . وهى أحط مخلوقة رأتهـــا
عينى . ولكن لا أهمية لذلك . ان ما اتحدث عنه هو تلك الحفـــلات
الصاخبة التى كانت تقام بالطابق الثالث فى الوقت الذى يكون فيه
الناس المهذبون فى فراشهم .

وربما كان الأفضل اغلاق فمها ، ومع ذلك فلماذا يغلق فمها ؟
كان عجيبا ووجد نفسه ينصت لها باهتمام حقيقى وان بدا له أن
أهم ما فى الموضوع هو أخذها هذه الأمور بكل هذا الجد .

ـ من مظهرها يبـــدو لك أن الزبد لا تذوب فى فمها ومن
طريقة تعنيفها اياى لهذا وذاك من أمور يبدو لك إنها لا تتهـــاون
قط فى شىء يجانب الصواب ، ومع ذلك كانت تهبط الى القبـــو
وتسرق الخمر بغير علمك وترقص مع أولئك الشبان وتشرب معهم

وتدير الفونوغراف حتى الساعة الرابعة صباحا . واعجب ظاهر فيها انها كانت تشرب الخمر كما يشربها الرجال .

آه ! اذن كان فى البيت فونوغراف وكانوا يرقصون على موسيقاه .

ـ كان يجب أن ترى آثار الفوضى والاضطراب التى كنت أزيلها كل صباح وأحيانا كانوا يظلون رقودا على الأرض من أثر الشراب أو يذهب بعضهم الى بيته ويبقى البعض الآخر راقدا فاقدا كل حس ولكم أعد نفسى سعيدة عندما أجد واحدا فقط هو الذى تخلف ورقد فاقدا الادراك .. انها أوضاع غريبة .. ومع ذلك تعاملون خدمكم كما ....

ورفع لورسا رأسه اذ كان قد سمع ضوضاء خفيفة ، ثم رأى وراء انجيل فى الممر المظلم ابنته نيكولى وكانت قد خرجت من غرفتها فى تلك اللحظة وكانت واقفة ساكتة تنصت للحديث .

ولم يقل شيئا . وبعد لحظة استردت انجيل تقول :

ـ ربما أصبحت الآن ملما بما قلته لقاضى التحقيق .. ولقد بذل قصارى جهده حتى اللحظة الأخيرة فى سبيل ايقافى عن الكلام .. قلت له ان أنسب مكان لهم جميعا هو السجن وبينهم ابنتك نفسها .. الا أن هناك بعض الناس لا يدخلون السجون أبدا .. أما ان شئت الحقيقة فسلها ماذا كان فى اللفافات . بل ان هناك ما هو أفضل من هذا وهو أن تطلب منها مفتاح الباب الخلفى وان فعلت ذلك فانى أراهن انه لا يستطيع أحد أن يعثر عليها .. هل سمعت ما فيه الكفاية ؟ لا فائدة فى تحديق النظر هكذا .. ولكل هذه الأضرار التى لحقت بى والوقت الذى اضعته أطلب ألف فرنك .

وكانت نيكولى واقفة فى مكانها وسأل نفسه عما اذا كانت ستتدخل :

ـ هل قلت لقاضى التحقيق انك قادمة الى هنا تطلبين نقودا ؟.

ـ قلت انى سأطلب تعويضا . ولم يكن عسيرا أن يقرأ المرء ماذا كان يدور بخلده وقتئذ وان فكرة كتم الموضوع وابقائه سرا هى التى كانت تسيطر على تفكيره . ولم يقل ذلك بوضوح طبعا .

بل ظل يدور ويلف حول الموضوع نصف ساعة ليقول لى ان التحقيق لم يكد يبدأ بعد وانه كلما قل الحديث عنه كان ذلك افضل . لماذا ؟ لأن الناس الذين يتناولهم الموضوع من اسر طيبة . وليس عسيرا أن يتنبأ المرء بما يحدث . انهم سيعملون على اغفال الموضوع حتى ينساه الناس جميعا ثم يحفظ التحقيق بهدوء . ولا يهم ذلك الرجل الذى قتل . لا حساب له .

ـ سأعطيك الف فرنك .

ولم يكن سبب هذا القول انه خائف أو راغب في اغلاق فمها بل لأنه شعر على نحو ما أنها تستحق هذا المبلغ .

وذهب الى مكتبه لاحضار النقود وانتهاز الفرصة ليشرب كأسا أخرى . وعندما عاد وجد انجيل جالسة فى هدوء تفكر فى انتصارها الذى لم تكن تنتظره .

وقالت : اشكرك .

ووضعت النقود فى حقيبة يدها .

هل كانت تشعر بوخز الضمير ؟ نظرت الى لورسا نظرة جانبية وقالت :

ـ لا تظن انى أحمل شيئا ضدك شخصيا . فالمسألة هى ..

وقطعت قولهما . وربما كانت فكرتها أشد غموضا من ان توضحها الكلمات وفضلا عن ذلك فقد حصلت على النقود ولم يعد هناك مبرر للكلام .

وتمتمت بكلمة وداع واختفت وهى تهبط على السلم تاركة اياه وجها لوجه مع ابنته .

ولم تدخل غرفتها فورا . ومن المفروض انه خطر لها انه سيتحدث معها وأراد ذلك وفتح فمه .

ولكن ماذا هو قائل لها ؟ وكيف ؟.

وبدا له كل شىء فكر فيه زائفا على نحو ما . كان خائفا .. وفهمت هى ذلك كل الفهم ولذلك استدارت دون ان تقول كلمة واحدة ودخلت غرفتها .

أين كان ذاهبا عندما فاجأته انجيل ؟ واضطر الى بذل مجهود ليجد الرد على هذا السؤال . لقد كان فى طريقه للاستكشاف .

ماذا كانت تعنيه انجيل عندما تحدثت عن الغرفة واية غرفة كانت تشير اليها ؟ كانت هناك أربع أو خمس غرف فى البيت . ثم اللفائف ؟ لفائف ماذا ؟.

وأدرك ان تليفونه ظل يرن دقيقة على الأقل . وكان من عادته تجاهل رنين التليفون ما أمكن ذلك حتى لا تعود أعصابه احتمال رنين التليفون .

وعاد الى مكتبه مرة اخرى والى جوه الداكن الخانق مما كان قد الفه . لماذا تركه ؟ .

ـ هاللو ؟ . من ؟ . أوه مارتى . ماذا تريدين ؟ .

أخته . وكان من العجيب أنها تأخرت حتى ذلك الوقت دون أن تتصل به تليفونيا . واستطاع ان يتصورها مضطجعة على أريكة وسماعة التليفون بيدها .

ـ اسمع اذا كانت ستصيح فانى لن استطيع سماع ما تقول .

وكان من الغريب عند كل واحد أن يدرك كيف تكون هذه المرأة المديدة القامة الشاحبة الوجه المنحنية قليلا أخته .

وجلس وملأ كأسه مرة أخرى وأبلغته مارتى ان ابنها ادمون قد استدعاه قاضى التحقيق .

ـ عم تتحدثين ؟ عنى ؟.

وكان غريبا أن تجعل أخته منه سببا لجميع هذه المشاكل وذلك بسبب الطريقة التى اتبعها فى تربية نيكولى .

ـ هل تريدين منى أن أتدخل لصالحه ؟ لن أفعل شيئا من هذا قط . هل تقولين السجن ؟ حسنا . وماذا فى السجن من عيب ؟ اسمعى يا مارتى ! دعينى أقل لك للمرة الأولى والأخيرة انك تسببين لى الما فى عنقى . نعم هكذا . طاب مساؤك .

ولقد انقضى زمان طويل منذ أن حدث له مثل هذا الشىء وآزعجه الآن أن يحدث له . لقد غضب فعلا وشعر بجسمه كله يتقد .

وشعر بثقل ينتاب جسمه ويقعده عن الحركة والتقط كأسه ثم اعادها الى مكانها . وتأمل قليلا . وبما أراد ألا يسمح لنفسه بأن يروح فى شبه غيبوبة .

وكانت نافذته مفتوحة . ورأى النوافذ الأخرى المقابلة داكنة تتناثر فيها كرات الضوء وأشباح الناس تمر وراءها مسرعة رائحة غادية .

وعلى حين فجأة فكر في شارع الييه . ولم يجرؤ على سؤال نفسه ما اذا كان يريد العودة الى ذلك الشارع المزدحم الذي تتلألأ فيه الأضواء .

هل من المحتمل أن تكون المكتبة قد أغلقت أبوابها . وربما كان روبير مانو في تلك اللحظة يرتدى معطفه الماكنتوش . ماذا يفعل ؟ أين يذهب ؟ .

ليته كان قد تكلم مع نيكولى .

لابد أن الخوف قد استبد بهم جميعاً . ابن الجزار وذلك الغبى دوسان الذى كان مضطرا للذهاب الى الجبال سنويا لرقة صحته التى ورثها عن امه على حين كان أبوه يقضى أوقاتا طيبة مع الفتيات اللواتى كان يلتقى بهن فى رحلاته التجارية .

ان أشد الناس جميعا ارتباكا هم أعضاء أسرة روجيسان . ان المدعى العام ظل طول حياته العملية يخشى المتاعب .

وبينما كان لورسا غارقا فى هذه التأملات بحث عن قطعة الورق وأخرجها من جيبه وبسطها أمامه على المكتب .

دوسان . دايا . ديستريفو . مانو .

وذلك الشخص الآخر . الرجل الميت الذى كانوا يطلقون عليه اسم لوى الضخم . ماذا كان اسمه الحقيقى ؟ أى نعم .. لوى كاجالان .

وأضاف لورسا بيده الثقيلة ذلك الاسم الى قائمة الأسماء الأخرى . وبعد أن أتم ذلك استنتج أنه كان من الأنسب أن يستخدم المداد الأحمر .

وعاد يشرب الخمر . فربما جعله هذا أحسن حالا . وفى اتباع العادة أمان . وأخذ يقلب النار بعناية . نعم كان من الأفضل أن يسير وفق عادته دون أن يزج بنفسه فى الأمر وذلك لمجرد .. لمجرد ؟ .

كان من السهل اختيار ...

وفتح الباب وان لم يكن هنــاك أحد قد طرق الباب . كانت جوزفين وهي على عهدها دائما امرأة غير مقبولة .

ـ هناك شاب يريد مقابلتك .

ـ من هو ؟ .

ـ لم يذكر اسمه . ولـكنى أعرفه على كل حال .

وانتظرت حتى يوجه اليها سؤالا :

ـ من هو ؟ .

ـ مسيو روبير .

ونطقت الساحرة العجوز بهذا الاسم كما لو كان أعذب الأسماء فى الوجود . وكان واضحا ان الفتى عـزيز عليها وانها مستعدة للدفاع عنه أمام العالم أجمع .

ـ أظنك تعنين روبير مانو ! .

وصححت له الاسم : مسيو روبير . هل تريد مقابلته ؟ .

وكان روبير وحيدا يذرع أرض البهو بسرعة رائحا غادبا وهو يطل من لحظة لأخرى الى السـلم الضعيف الاضـاءة ثم ظهرت جوزفين عند قمة هذا السلم .

وقالت :

ـ تستطيع الصعود الى فوق .

وأسرع لورسا بشراب كأس أخرى ليستجمع قواه استعدادا للقـاء .

ـ ٤ ـ

ـ اجلس ..

ولكن روبير كان متوتر الأعصاب لدرجة لم تسمح له باتبـاع قواعد السلوك فى الزيارة . ولم يتح له الوقت الـكافى ليحس الجو السائد فى الغرفة فاندفع يقول :

ـ جئت لأقول لك ...

ولم يكن فى نية لورسا أن يهاجم الفتى . ولـكن ربمـا كان داخليا مزودا بأسلحة ضد شىء ما . وعلى كل حال فانه صـاح بأعلى صوته :

ـ بحق الله اجلس ! .

ومن الواجب أن نعترف للورسا بأنه كان يكره ان يجلس على حين يظل الشخص الذى يحدثه واقفا . ومع ذلك فان هـذا لم يكن مبررا لأن يصيح على هذا النحو . أما الفتى فقـد كان من الاضطراب بحيث لم يكن ذهنـه حاضرا فيتطلع حوله بحثا عن مقعد . وكان مرتديا المعطف الماكنتوش أما حلتـه فكانت من ذلك النوع الذى تراه معلقا خارج حوانيت الثياب الجاهزة وكان حذاؤه مشققا وقد بلى كعبه ويبدو أنه كان قد رتق هذا الحذاء مرارا .

وأخيرا قفز لورسا واقفا ورفع مقعدا ذا ذراعين لزائره وجلس وهو يتنهد تنهد الارتياح .

ـ ماذا جئت تقول لى ؟ .

ولم يستطع الشاب أن يرد وذلك لأن ثورة المحامى المفاجئة قوضت الأرض تحت قدميه وعلى كل حال فقد نظرنا الى لورسـا نظرة كان فيها مزيج من الذلة والكبرياء فى وقت واحـد وعلى الرغم من النظرة الثاقبة الثابتة التى وجهها لورسا اليه فانه لم يغير اتجاه نظرته وبدا عليه كأنما يقول :

ـ لا يخطرن ببالك انى خائف منك ! .

ولـكن شفتيه ارتعشتا وأخذت أصابعه تمران على قمـاش قبعته الناعم .

وأخيرا قال :

ـ انى أعرف ما يدور بخلدك وأعرف لمـاذا جئت الى المكتبة .

وهكذا أصبح هو المهاجم الآن وكانت عباراته تعنى بجلاء : ربما كنت محاميا عظيما وما الى ذلك . ولـكنى أستطيع قراءة أفكارك بوضوح .

ولـكن الذى يدور بخلد لورسـا شيئا لا يستطيع الشـاب معرفته قط . فقد كان يتساءل عما اذا كان هو نفسـه وهو فى سن روبير بمثل هذه النحافة معروقا جلدا على عظم كثير الحركة هكذا . تطل عيناه على الناس فى غيرة وسرعة استعدادا للهجوم ماذا كان موقفـه وهو فى الثامنة عشرة من رجل فى الخامسـة والأربعين من عمره ؟ .

وكان صوت روبير مانو واضحا وهو يقول :

ـ لم أقتل لوى الضخم .

وظل واقفا ينتظر رد الرجل الآخر وهو متوتر الأعصاب .

وسأله المحامى وقد انتشرت ابتسامة عريضة على وجهه :

ـ وكيف عرفت أن لوى الضخم قد قتل ؟ .

ورأى روبير غلطته على الفور . فان الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مولان لم تذكر شيئا عن الحادث ، والجيران ان لمحوا الجثمان وهو يخرج من البيت على محفة لم تكن لديهم وسيلة يعرفون بها أن هذا الجثمان لرجل ميت قتيل .

ـ لأنى أعرف .

ـ اذن لابد أن يكون احد ما . قد قال لك شيئا عنه .

ـ نعم وصلت الى بعد ظهر اليوم مذكرة من نيكولى .

ونظر الى عينى لورسا .

وبدا عليه انه يريد أن يقول : أنت ترى انه ليس لدى شىء اخفيه . وانك لتستطيع أن تحدق بالنظر الى ما شئت وأن ترقب انفعالاتى .

ولكى يثبت صحة قوله أخرج المذكرة من جيبه .

ـ ها هى ذى . خذها اقراها .

كان الخط من غير شك خط نيكولى بحروفها الأنيقة الطويلة .

« قتل لوى الضخم بالرصاص فى الليلة الماضية . ومات من فوره . وقد حقق معى قاضى التحقيق ساعتين كاملتين . وقلت له كل شىء عن الحادث وعن اجتماعاتنا . وقلت له كل شىء عن اسماء الذين اشتركوا فى هذه الاجتماعات . »

لا شىء قبل ذلك ولا شىء بعد ذلك .

ـ هل كنت قد تلقيت هذه المذكرة قبل أن أزور المكتبة ؟ .

ـ نعم .

ـ هل احضرها اليك احد ؟ .

ـ جوزفين . كانت معها عدة مذكرات واحدة منها لكل منا .

اذن فقد عمدت نيكولى عقب انتهاء التحقيق معها الى كتابة ست مذكرات ومضت جوزفين بهذه المذكرات فى أنحاء المدينة .

ـ هناك شىء واحد أيها الشاب لا أستطيع أن افهمه وهو لماذا جئت الى لتقول انك لم تقتل لوى الضخم .

ـ لأنك رأيتني ! .

وفي هذه المرة كان يتحداه تحديا حقيقيا وبصراحة .

ـ عرفت انك رأيتني وربما عرفتني ولهذا جئت الى المكتبة واذا أنت أبلغت البوليس فانه سيلقي القبض على .

واصبح واضحا ذلك الخليط العجيب من العناصر في داخل نفسه فهو يتكلم بحزم الرجل ثم يعقب ذلك بمط شفته السفلى كالطفل الذي على وشك البكاء ثم نطقت ملامحه بعدم الاستقرار الى حد يدعو المرء الى التساؤل عن مبلغ جديته .

ـ واذا ألقوا القبض على فان أمي ..

لم يكن على وشك الانهيار بل انه قبض قبضته ونهض واقفا على قدميه ونطقت عيناه بكراهية هذا الرجل الذي استطاع أن يذله الى هذه الدرجة على حين يتجرع كأس الخمر بهدوء وبطء قائلين .

ـ أستطيع أن أرى انك لا تصدقني وانهم سيسجونني وعندئذ تفقد أمي كل تلاميذها .

ـ اهدأ . اهدأ . الا تشرب كأسا من الخمر ؟ كلا ؟ لك ما تشاء . الاحظ انك تتكلم عن امك لا عن أبيك .

ـ مات منذ وقت طويل .

ـ ماذا كان يعمل ؟ .

ـ كان يعمل عند دوسان .

ـ وهل تقيم مع امك وحدكما ؟.

ـ نعم فأنا ابنها الوحيد .

ـ أين ؟ .

ـ في شارع أرنست فيفينون .

وهو شارع جديد في الضواحي قريب من المقابر يضم بيوتا متواضعة للمتواضعين من الناس . وكان روبير يكره العيش في شارع أرنست فيفينون وكان هذا واضحا في طريقة التحدي التي ذكر بها اسم الشارع واعقب ذلك بقوله !

ـ ماذا يهمك من مكان اقامتي ؟.

ـ طلبت اليك الجلوس .

ـ معذرة .

ـ مادمت أنت الشخص الذى رأيته على السلم الخلفى فربما استطعت أن تقول لى ماذا كنت تفعل بالطابق العلوى . وكنت قبل ذلك خارجا توا من غرفة نيكولى فهل كنت فى طريق عودتك الى بيتك ؟ .

ـ نعم .

ماذا كان شعور لورسا لو أنه فى سن الثامنة عشرة وجد نفسه فى مثل ذلك الموقف ؟ كان الفتى جالسا أمام أب فتاة خرج هو من غرفتها فى منتصف الليل .

ومن العجيب أن روبير أصبح الآن أهدأ حالا . ولم يبد عليه أن هذا الأمر سبب له أى ازعاج يعدل نصف ازعاجه من سكناه فى شارع أرنست فيفينون .

ـ كنت فى طريقى الى الباب الخلفى . وكنت قد وصلت الى السلم عندما سمعت صوت طلقة المسدس ولا أعرف لماذا صعدت الى فوق بدلا من أن أهرب . وخرج شخص ما من غرفة لوى الضخم ...

ـ هل رأيت القاتل ؟.

ـ لا فلم يكن هناك ضوء بالطابق الثالث .

ـ ولكن كان هناك ضوء عندما صعدت أنا الى الطابق الثالث .

ـ لأنى أنا الذى أضأت النور .

ومرة أخرى نظر نظرة صارمة الى لورسا كما لو كان يريد اقناعه بصدق كلامه .

ـ ثم ؟ .

ـ لابد أن يكون الرجل قد رآني أو سمعني .

ـ اذن فقد كان رجلا ؟ .

ـ افترضت ذلك .

ـ الا يمكن أن تكون نيكولي هى القاتلة ؟.

ـ لا فقد كنت خارجا توا من غرفتها .

ـ وماذا فعل الرجل بعد ذلك ؟.

ـ جرى نحو آخر الردهة . ودخل غرفته وأغلق بابها عليه وشعرت بالخوف ولهذا هبطت على السلم .

ـ دون أن تنتظر لترى ما حل بلوى الضخم ؟.

ـ نعم .

ـ هل خرجت من البيت بسرعة ؟ .

ـ لا . بل وقفت عند الباب الخلفى أنصت على حين صعدت أنت فى السلم .

ـ اذن لقد كان هناك شخص آخر سواك فى البيت ؟.

ـ قلت الحقيقة .

ومضى الفتى يقول بسرعة :

ـ جئت أطلب اليك ان لم يكن الأوان قد فات ألا تقول شيئا عن رؤيتك اياى . فلدى أمى ما يكفيها من المتاعب فى حياتها وسيضع ثقل كل هذا علينا ولسنا اغنياء . وليس لدينا ما يزيد على كفايتنا .

وجلس لورسا ساكنا بلا حركة . وكان فى الظل خارج نطاق ضوء مصباح المكتب وبذلك بدا أكبر حجما من حقيقته .

وهناك شىء آخر أردت أن أقوله لك .

وغاص قلب الفتى بين أضلعه مرة أخرى عند ذكر امه ولكنه عاد الآن يتطلع الى لورسا فى حدة وتحد :

ـ أردت أن أطلب منك الاذن بأن أتزوج من نيكولى . ولو لم يقع هذا الحادث المخيف لانتظرت حتى ....

انه المال دائما ، انه المركز دائما ، انها عقدة النقص دائما هى التى تثقل عليه وهى التى ظل يكافحها حسبما اتفق وبطريقة غير سليمة الى حد أصبح معه شديد الاعتداء والهجوم .

ـ هل تفكر فى الاستقالة من عملك بالمكتبة ؟.

ـ هل تنتظر منى أن أقضى حياتى كلها فى عمل مثل هذا ؟.

ـ لا طبعا . فهل فكرت فى الذهاب الى باريس ؟.

ـ نعم .

ـ لتجمع ثروتك ؟.

وأدرك الفتى ما فى هذا القول من سخرية .

ـ لا أعرف ما اذا كنت سأجمع ثروة أم لا . ولكنى لا أرى سببا يحول دون ان أمضى فى حياتى كما يمضى الآخرون .

لقد أخذ يبكي ! لا . لم يكن ذلك عدلا . فقد بدت غلطة لورسا الذى لم يعرف كيف يعامله .

ـ أحب نيكولي .. وهي تحبني .

ـ لدى كل ما يحملني على تصديق ذلك ما دامت تستقبلك في غرفتها ليلا .

ولم يستطع لورسا ضبط نفسه . ومع ذلك فقد تبين انه يجب أن يبدو أمام الفتى رجلا رهيبا .

ـ ولقد أقسمنا على الزواج .

وبحث في جيوبه حتى وجد منديله أخيرا واستطاع أن يمسح عينيه وأن يتمخط في المنديل .

ـ متى عرفت نيكولي ؟.

ـ منذ وقت طويل جدا وغالبا ما كانت تحضر الى المكتبة لاستبدال كتبها .

ـ وبهذه الطريقة اصبحتما صديقين ؟.

ـ ليس الأمر هكذا تماما اذ لست في المكتبة أكثر من موظف .

وهكذا عادت بساطة مركزه تخنقه من جديد .

ـ ثم تحدثت مع أمي عنها . وجاءت أمي الى هنا عدة مرات كانت تعطيها دروسا في البيانو فقد كانت بدروس البيانو تعيش وتربيني منذ أن مات أبي . وكانت تحضر في الحادية عشرة صباحا وغالبا ما كانت تعود دون اعطاء نيكولي الدروس لأن نيكولي في أغلب الأوقات كانت في فراشها في مثل هذه الساعة من النهار .

وهدأ الفتى ومضى في شيء من الثرثرة .

ـ لقد كان لوسكا هو الذى قدمني الى هذه الجماعة .

ـ ومن هو لوسكا هذا ؟ .

ـ الا تعرف حانوت أبيه ؟ انه أمام مدرسة الصبيان . وفيه يبيع اللعب والحلوى والبلي وسنانير الصيد وما الى ذلك من أشياء .

ـ وهل يعمل الفتى هناك ؟.

ـ لا .. بل في قسم بيع اللعب في السوق .

لماذا ذكر اسم مدرسة الصبيان وبائع البلى ؟ فى تلك الايام لم يكن بالمدينة اية حوانيت سوى ذلك الكشك الصغير الذى تقف به امرأة عجوز اسمها الأم بينو وكانوا يشترون منها اللعب عند خروجهم من المدرسة .

ولو لم يكن الفتى هناك لوقف لورسا أمام المرآة اذ أدهشه أن يحس وجهه وقد غطته لحية كثيفة .

ـ اذن فقد كان لوسكا هو الذى قدمك اليهم . اين كان ذلك؟

ـ عند جو .

ـ ومن هو جو ؟ .

ـ ملاكم متقاعد يدير بار الملاكمة بالقرب من السوق .

من اشد الأمور ازعاجا أن يعيش المرء فى مستويين مختلفين فى وقت واحد . كان لورسا جالسا الى مكتبه وجسمه الممتلىء يملأ المقعد وأصابعه القذرة تعبث بلحيته وزجاجة الى أحد جانبيه والموقد الى الجانب الآخر وصفوف الكتب تغطى الجدران .

وادرك انه لورسا وانه فى الخامسة والأربعين من عمره وانه شديد البدانة وان لحيته طويلة وقذرة كل القذارة وسمع الصوت وهو يصدر عن الشاب الذى كان يسترق منه اللحظات .

وقال لنفسه :

ـ لقد كنت فى مثل نحافته .

ولكن كان له بضعة أصدقاء . وكان يعيش وحده ويستمتع بالآراء والفلسفة والشعر . وربما كان هذا سر متاعبه . وحاول أن يرى الآن نفسه كما كان وقتذاك وأن يرى نفسه عندما كان يتحبب الى جنفياف .

ولم يفطن روبير وقتئذ الى ما يدور بخلد الرجل الآخر بل استمر ماضيا فى سرد قصته .

ـ ذهبت الى هناك فى ليلة الحادث . ولم أكن سعيد الحظ بهذا وسوء الحظ امر موروث فى أسرتنا . فقد مات أبى وهو فى سن الثانية والثلاثين .

ودهش لورسا وهو يسمع نفسه يسأل الفتى :

ـ ماذا كان سبب وفاته ؟ .

ـ الالتهاب الرئوى . وقـــد بدأ ذلك باصابته بالبرد عندما اصطحبنا الى معرض للطيران . وأمطرت السماء وأصابه البلل .

وقد مات شخص آخر بالالتهاب الرئوى .. شقيق جنفياف ولـكنه كان أصغر سنا . كان فى الرابعة والعشرين من عمره . ولم يجد السجائر على المكتب وضايقه هذا .

كلا . كلا . أين كان هذا الفتى الصغير العصبي الذي جمعته الـكبرياء فى حديثه .

ـ هل استوليت على سيارة أحد ؟.

ـ قال ادمون لى ان هذا هو ما يفعلونه دائما عندما لا يستطيع دايا أن يحصل على سيارة النقل .

ـ آه ! كنتم تقومون بمغامراتكم بسيارة جزار الخنازير ؟.

ـ نعم . فقد كان الجراج بعيـــدا عن البيت . فـــلم يكن أبوه يعرف أين ذهبت السيارة .

ـ ان الأبوين فى الواقع لا يعرفان شيئا على الاطلاق ! وماذا فعلتم عند جو ؟.

ـ علمنى ادمون لعب الورق .

وهكذا بدا ادمون العليل الصـــحة شديد الحيوية فى هـــذه الحفلات . وربما كانت حالته هذه أغرب الحالات جميعا شأنا .. فتى مليح متورد الخدين له عينا فتاة حسناء يحوم حول أمه دائما ويقضى لها مهماتها .

ـ هل كان ادمون الزعيم ؟.

ـ تقريبا وان لم يكن هناك زعيم قط ولكن ..

ـ فهمت ..

ـ ولـــما كنت حديث عهد بالجماعة فانهم جعلونى أشرب الخمر ثم حدثونى عن الخروج بالسيارة الى أوبرج أونوايو .

ـ وكانت نيكولى تذهب معكم طبعا ؟.

ـ نعم .

ـ هل كانت تصطحب واحدا معينا ؟.

واحمر وجه روبير .

ـ لا اعرف .. ظننت ذلك .. ولكنها اقسمت لى فيما بعد انه لم يكن هناك شيء بينهما .
ـ مع من ؟ .
ـ دوسان . كان لعبا . ولكنهما جعلا كل واحد يظن انهما معا .. وكانا يتعمدان ذلك . وكانا يمثلان دوريهما .
ـ هل أخذت أول سيارة صادفتك ؟.
ـ نعم لدى رخصة قيادة سيارة .. ولما لم تكن لدينا سيارة فانى كنت قليل الخبرة .. وكانت السماء ممطرة .. وفى أثناء العودة ...
ـ انتظر لحظة .. ماذا فعلتم فى الفندق ؟ .
ـ لا شيء . اذ كان مغلقا عندما وصلنا اليه .. انه فندق من تلك الفنادق التى توجد على جانب الطريق العام بين المدن . واستيقظت الأم ثم أيقظت الفتيات ..
ـ اذن كانت هناك فتيات ؟.
ـ اثنتان ايفا وكلارا .. وليس الأمر كما يدور بخلدك .. وانا نفسى خطر لى هذا الخاطر فى أول الأمر وحاول ادمون أن يجعلنى أظن ذلك .. ورقصنا على موسيقى الفونوغراف . ولم يكن هناك شراب كثير .. كانت هناك البيرة والنبيذ الأبيض .. وفى آخر الأمر قررنا ...
ـ اتمام الحفل هنا .
ـ نعم ..
ولم تتغير ملامح لورسا الخارجية ولكن روبير أحس أنه من الآن فصاعدا يستطيع أن يقول أى شيء .
ـ لا أعرف كيف وقع الحادث . كانوا قد قدموا لى الكوكتيل عند جو . وفى الفندق شربت النبيذ الأبيض . ولما حاولت الكف عن الشراب كان أوان ذلك قد فات وتقيأت . وتولى دايا قيادة السيارة وأظن انه اضطر الى مساعدتى فى الصعود .
ـ الى فوق ؟ .
ـ نعم . ولقد نمت . واستيقظت فى الساعة الرابعة وكان الطبيب قد مضى .

ـ ونيكولي ؟ .

ـ اهتمت برعايتي . وكان الآخرون قد عادوا الى بيوتهم عامدا لوى الضخم الذى ظل فى الفراش يرقبنا وشعرت بالخجل واعتذرت لنيكولى وله ..

ونهض متسائلا عما اذا كان من الخطأ أن يتكلم على النحو الذى كان يفعله وعما اذا كان من المحتمل ان يكون المحامى قد نصب له فخا .

وعندئذ انتقل بسرعة الى فكرة أخرى فقال بنغمة حازمة :

ـ اذا حاول البوليس القبض على فانى ساقتل نفسى .

وتغيرت حاله بسرعة وعلى نحو مفاجىء . وعادت اليه صلابته .

ـ لا ادرى لماذا جئت الى هنا . وربما كان ذلك غباء منى . ولكن قبل أن أمضى هل أستطيع رؤية نيكولى لحظة واحدة ؟ .

ـ اجلسي .

ـ لا أستطيع للأسف . لقد مر بى يوم عصيب . وأمى لا تزال تجهل كل شىء . وان كانت قد قضت الاسبوعين الماضيين منشغلة بشأن عودتى الى البيت متأخرا . هل كانت الغلطة غلطتى أنا ؟ .

فهل أراد من لورسا ان يؤيده ؟ هكذا يخطر ببال المرء . ولكنه كان طريد احساس بأن القدر ضده على نحو ما . وهو احساس مشترك بين جميع الشبان من امثاله .

ـ هل كان لورسا عندما هجرته زوجته ..؟ ...

ومد المحامى يده بحركة غريزية الى الكأس وتساءل لماذا أكثر من التفكير فى نفسه عند سماعه قصة هؤلاء الشبان ؟ لقد فكر فى نفسه فقط . لقد قضى الساعة الأخيرة فى التفكير فى نفسه أكثر مما فكر فى روبير أو نيكولى أو أصدقائهما . واختلط كل شىء كما لو أمكن وجود رابط بين أحداث الحاضر وأحداث الماضى .

لم يكن هناك رباط ولا مشابهة . فانه هو شخصيا لم يكن فقيرا مثل مانو ولا كان أرمنيا مثل لوسكا ولا عليلا مثل ادمون

ابن اخته . ولم يكن يرتاد بارات الملاكمين ولم يتخذ من بنت عمة عشيقة له .

ولم يكن بينه وبين هؤلاء الشبان فارق الجيل فحسب .

كان شخصا منعزلا ! هذه هي الحقيقة التى كان ينشدها . لقد كان وحيدا حتى في شبابه ومتكبرا . تصور ان الشخص يستطيع الزواج ثم يحتفظ بعزلته . ولكنه عنـــــدما وجد بيته ذات يوم خاليا ..

ولكن ان لم يوجد الرابط فلماذا اذن ازعجه هذا الى حد جعله يتخلل لحيته الخشنة بأصابعه ؟ .

هل سيضطر الى الاعتراف باحساس يشبه الذلة ؟.

لأنه كان في الخامسة والاربعين من عمره ؟ لأنه كان قـذرا ولأنه مخمور ؟ .

لم يرد التفكير في هذا .

دق جرس العشاء مرتين .

وسمع وقع أقـــدام في الممر . لمس البعض مقبض الباب ثم عاد وقرر أن يطرق الباب أولا .

ـ من ؟ .

ـ انا .

كان الصوت صوت نيكولى الوديع . وفتح لورسا الباب ..

وكانت في غاية الهــــدوء اهتمت بتسوية شعرها وتصفيفه وهو منسدل غزير وراء عنقها وكان وجهها مشرقا ونظرتها هادئة .

ـ لم أقصد ازعاجك ..

ثم ذهبت الى الفتى وبسطت يدها له !

ـ طاب مساؤك يا روبير .

ـ طاب مساؤك يا نيكولى . قلت لأبيك كل شيء .

ـ كنت على صواب في هذا .

والآن فقط يراهما لورسا معا وخطر بباله أن هذا الفتى واحد من أفراد العائلة . فقد كانا يتكلمان بطريقة سهلة وودية وفى الفة كبيرة .

واحس انه حجر عثرة في سبيلهما .

وسألت روبير :

ــ هل قررت شيئا ؟.

واستدار لورسا جانبا دون أن تنطق ملامحه بأى شيء . ولكى يغطى ارتباكه صب لنفسه كأسا أخرى . لماذا يثير عمله هذا اشمئزازهما ؟ ألم يفكرا ؟ ألم يركنا الى قضاء وقت فراغهما فى الشراب والرقص على أنغام الفونوغراف ؟.

لماذا يلتمس لنفسه المعاذير ؟ ان أحدا لم يوجه اليه انتقادا . انه لم يعرف منذ أدار ظهره اليهما ما اذا كانا قد اشمأزا أم ظهر عليهما عدم الرضا ..

الحقيقة ...

نعم انها الحقيقة ولابد أن يعترف بها وبأنها هى التى تزعجه حقيقة أنه الآن وربما منذ صباح اليوم وربما منذ وقت طويل جدا قد نجح فى خلق نوع من العذاب وذلك الطعم الكئيب للعار فى هذه الوحدة التى اختارها لنفسه .

وعندما اعتدل فى وقفته وأدار لهما وجهه كان قد ارتسم على وجهه تعبير أكيد :

ــ ماذا تنتظران ؟.

لم يعرف المسكينان .

وقالت نيكولى :

ــ هل أوصله الى الباب ؟.

وأجاب بهزة من كتفيه :

ولم يمضيا غير عشر خطوات فى الممر حتى مضى نحو رف المدفأة ونظر الى خياله فى المرآة .

ــ هاللو ! أهذا انت ياهيكتور ؟.

انها هى أخته مرة أخرى .

ــ اننى فى غير حالتى الطبيعية بسبب ماينتابنى من قلق .. هل يمكن أن تحضر لحظة واحدة ؟. تشارلى فى باريس فى عمل له . وقد حاولت أن أوضح له الأمور تليفونيا ولكنه قال انه لن يستطيع العودة قبل الغد .

ولم تبد استجابة من لورسا . ولو أن أخته القت بنفسها عند قدميه وهى تتألم وتتعذب لكان من المشكوك فيه كثيرا أن تتحرك

فيه عضلة واحدة . أما بالنسبة لزوج اخته فانه طبعا لن يستطيع العودة قبل الغد .. ذلك لأنه فى تلك اللحظة يتناول عشاءه مع امرأة حسناء .

ـ اسمع .. لم يعد أدمون بعدالى البيت .. ولاأجرؤ على الكلام فى هذا الموضوع بالتليفون .. هل تظن أحدا ينصت الى هذا الحديث ؟.

وتعمد الا يرد على هذا السؤال .

ـ انه لا يزال مع قاضى التحقيق . وقد اتصل دوكد به منذ لحظة . وقد جعلت روجيسار يطلب منه ابلاغى أول فأول ويبدو انهم لم يستجوبوه بعد . ولم يعطنى دوكد أية تفصيلات ولكن يبدو من النقط التى أغفلهـا أن القضية أكثر خطورة مما كانت تبدو عليه فى أول الأمر وسيصبح من العسير جدا كتمان أمرها .

ـ ثم ؟.

ـ ولكن ياهيكتور ..

ـ ماذا ؟.

ـ لقد حدث الموضوع كله فى بيتك . وكانت نيكولى هى التى ...

ـ حسنا ان كنت راقبتها ـ معذرة !. فليس هذا ما أقصده . اننى منزعجة جدا . هل تفهم هذا ؟ لقد اضطررت للذهاب الى الفراش واستدعاء طبيب .

وكان استدعاؤها الطبيب مرارا أمرا عاديا مألوفا وكان هذا الموضوع محببا اليها كالبيرجندى عند أخيها .

ـ اسمع ياهيكتور .. ابذل مجهودا وتعـال وقابلنى أو اذا تفضلت .

ـ اننى لا أتفضل أبدا .

ـ انى لا أعرفك هكذا ياهيكتور . لا أستطيع الذهاب الى هناك وأنا بالحالة التى أنا بها . اذهب وانظر ما هنالك . أعده الى . وقل لى ماذا يجب أن أفعل . وقل له هو بصـفة خاصة ماذا يجب أن يفعل .

هل قال نعم ؟ هل قال لا ؟ انه همهم بشىء ما على كل حال .

وأعاد السماعة الى مكانها . ووقف فى غرفة المكتب ينظر حواليه محاولا التقاط طرف الخيط .. خيط الأفكار الذى كانت

مارثى قد قطعته . وتجهم وجهه عندما ذكر أن غرباء قد اقتحموا عليه خلوته .

وكانت نيكولى قد تركت الباب مفتوحا وراءها . وسار فى الممر ودخل غرفة المائدة فوجدها جالسة فى مكانها المعتاد .

ونهضت واقفة على الفور عند دخوله وذهبت الى الطاقة المطلة على المطبخ .

ـ الحساء ياجوزيفين ..

وتحاشت النظر اليه . ماذا كان مدار تفكيرها عنه ؟ ماذا قال روبير لها وهما ذاهبان معهما حتى الباب الخارجى ؟ هل قبل أحدهما الآخر عند الوداع ؟.

وافاق من تفكيره على حين فجاة وشعر بالتعب وفى جسمه بالحذر كما يحدث له فى الصباح قبل أن يشرب الخمر .

ـ أى لون من الحساء ؟.

ـ حساء البازلاء .

ـ وأين اذن لسان العصفور ؟.

نسيت جوزفين وضع لسان العصفور وثار ثورة شديدة بسبب ذلك .

ـ طبعا اذا كانت تقضى نصف يومها تجرى فى المدينة توزع المذكرات فلا يمكن أن تجد لديها وقتا تجيد فيه الطهى . وطبيعى لم يخطر ببال أحد احضار خادمة أخرى .

ورفع راسه فوجدها تنظر اليه فى تعجب وتبين أن هذه هى المرة الاولى منذ سنوات يتحدث فيها فى مثل هذا الموضوع .

كان شبه غاضب لهذا الأمر . وعلى الرغم من كل ماحدث وعلى الرغم من هذه الاستجوابات ومن خطابات التحذير التى كتبتها ومن وجود البوليس فى البيت ، ومن كل شىء ـ وجدت وقتا للعثور على خادمة .

وسأل وهو غير مصدق :

ـ من أين جاءت ؟

ـ من دير .

ـ ماذا ؟ ماذا ؟.

ـ من دير كانت تعمل فيه خادمة ... وهي الآن مخطوبة .. واسمها اليانور .

لم يكن مستطيعا ان يغضب لأن نيكولى قد استخدمت خادمة جديدة اسمها اليانور .

واخذ يشرب الحساء ... وبعـــد انقضاء بعض الوقت ادرك الضوضاء التي كانت تصدر عنه وهو منحن فوق وعاء الحساء كأنه طفل لم يتعلم آداب المائدة بعد .

والقى نظرة أخرى على ابنته ... لم تكن تعيره أدنى اهتمام فقد الفت منه ذلك أما هى فقد كانت تراعى آداب المائدة تماما على حين كانت افكارها تحلق فى آفاق بعيدة .

وأسرع بخفض بصره واضعا وجهه فوق صحنه لأن شيئا رهيبا جدا خطر له .. شيئا لم يدر كنهه ولم يكن له من سبب .

وكل هذا لأن ... لأن ماذا ؟ انه شيء شديد التعقيد الى حد لاتستطيع الكلمات ايضاحه .

لحسن الحظ لم تره نيكولى ...

وانتهى من حسائه باسرع مما هو مألوف منه ونهض واقفـــا ومضى نحو الباب .

ـ أين أنت ذاهب يا أبى ؟

كانت دائما تناديه بيا أبى ... ولا تقول له بابا . ولم يستطـع الرد فورا والقى فوطته على المقعد وذهب نحو الباب وعندما بلغ الباب استطاع ان يتمتم :

ـ الى بيت عمتك مارثى .

القسم الثـــانى

ـ ١ ـ

شعر أنه كمن يعود الى الحياة من جديد . فقد فعل اشياء كان قد نسيها منذ وقت طويل او اشياء لا يزال يقوم بها دون وعى بها مثل رفع ياقة معطفه ومثل دس يده فى جيبه والاستمتاع بالبرد والمطر والانعكاسات الغريبة فى الشوارع المتلألئة .

وكلما مر بأحد أو بقوم تساءل بينه وبين نفسه أين هم ذاهبون . كم من الوقت انقضى منذ أن خطر له فى آخر مرة أن يخرج ليلا .

أصبحت أضواء شارع الييه الآن مختلفة عما كانت عليه من قبل .
ولم تعد هناك أضواء فى السوق أما الأضواء فى واجهة دار السينما فقد كانت متوهجة .

ومشى لورسا بسرعة وظلت نظراته الى الناس والى الأشياء خلسة وخاطفة وذلك كما لو كان يخجل من مثل هذه النظرات .

ولما وصل الى باب بيت أسرة دوسان وهو من الحديد والزجاج كان مستعدا ليستقبله كبير الخدم الذى حاول أن يساعده فى خلع معطفه .

ــ أين أختى ؟ .

ــ ان سيدتى فى مخدعها . تفضل من هنا .

وأشعل سيجارة وألقى بعود الثقاب على الأرض .

ــ ادخل يا هيكتور ! . اغلق الباب يا جوزيف .. وأن عاد ادمون أبلغه انى أريد رؤيته فورا .

ولم يكن لورسا يحب أخته على الرغم من انها لم تسىء اليه قط . كان يضيق ذرعا بشكواها الدائمة وبثيابها وأناقتها المبالغ فيها وبزوجها وببيتها وبالتزامها الشديد لقواعد البروتوكول .

ولم يكن يغار منها فقد كان لديه من المال ما يعدل مالهم .

ــ اجلس يا هيكتور .. أنا شاكرة لك مجيئك هذا . هل مررت بالمحكمة . ما هو مدى علمك بهذه القضية ؟ ماذا قالت نيكولى لك ؟ .

ــ لا أعرف شيئا أكثر من أنهم قتلوا رجلا فى بيتى .

وكان ذهنه شاردا وهو يتكلم . وتساءل بينه وبين نفسه لماذا يحمل بين جنبيه كل هذه الكراهية لأسرة دوسان . ولم يجد لهذا السؤال من رد مقنع . كان يحتقرهم بسبب تظاهرهم وادعائهم والبيت الذى أصبح بالنسبة لهم مظهر الوجاهة وارتفاع المركز .. وكان يرى فى دوسان وشاربه المعطر أكبر مثل للغبى السعيد .

ــ هل تقصد يا هيكتور أن الأولاد هم الذين ...

ــ الا يبدو الأمر كذلك ؟ .

ونهضت من أريكتها على الرغم من مرضها .

ــ لا بد أنك مجنون يا هيكتور ! . أو اذا كان هذا هو رأيك فى النكتة كيف تكون فأنت شخص جدير بالكراهية . وانت تعلم انى فى غاية التوتر العصبى وقد طلبت اليك الحضور لأنى لم أعد

مستطيعة البقاء وحيدة فاذا بك تأتى فعلا لتستمتع بالعشرة معى اذ تقول لى ان الأولاد هى الذين ...

ـ ألم تطلبى منى ذكر الحقيقة ؟.

ولو لم يحدث ما حدث منذ ثمانية عشر عاما لظلت زوجته معه وهى فى سن مارتى فهل كانت تصر على أن يبنى لها بيتا جديدا ؟.

كان من الصعب الرد على هذا السؤال اذ كان يفكر فى عدة أمور وهو ينظر الى أخته . وتبين أنه كان من المستحيل ان يتصور ما كان يصبو اليه الآن كرجل متزوج وربما كان له أولاد آخرون غير نيكولى وكان يتساءل ماذا كان يفعل طول تلك السنين ؟.

ـ اسمع يا هيكتور . أعرف عنك انك كثيرا ما تنتابك لحظات تصبح فيها شخصا آخر غير الذى أعرفه فيك . ولا يعنينى ما اذا كنت قد شربت اليوم خمرا ، فليست اللحظة مناسبة لتغلق على نفسك باب غرفة مكتبك القذرة . اذ لا بد لك من أن تفعل شيئا .. وعلى كل حال فانك المسئول عن كل هذا اذ لو انك أحسنت تربية نيكولى ....

ـ اسمعى يا مارتى . هل طلبت الى الحضور الى هنا لاهانتى ؟.

ـ انى أحاول أن أجعلك تفهم واجبك . ان هؤلاء الأطفال لا يدركون المسئولية . ولم يكن ميسورا فى أى بيت آخر غير بيتك وقوع ما وقع . وتستطيع بالتأكيد أن تدرك ذلك . وانى لأتساءل أحيانا أما كنت تعرف طول ذلك الوقت ما يجرى فى بيتك . ومع ذلك لا تفعل الآن شيئا . وأنت محام . وقد تأخذهم فى وزارة العدل رحمة بك ولكنهم يحترمونك على الرغم من كل شىء .

ـ لا أعرف اذا ما كانت نيكولى قد ورثت شيئا عن أمها ولكن ....

ـ مارتى !.

ـ ماذا ؟.

ـ استمعى !.

ـ لماذا ؟.

وحدث نفسه بوجوب لطمها على وجهها !. ولطمها فعلا فاثار دهشتها تغييره المفاجىء .

ـ هل تفهمين ؟. اننى لا أتكلم عن زوجك أو ....

وكف عن الكلام . هل كان من الممكن وهو الذى احتقرهم جميعا وهو الذى كانت له الشجاعة الكافية فاعتزل الناس ثمانية عشر عاما هل كان من الممكن أن يدخل في مثل هذه المناقشة . هل كان من الممكن أن يصيح فى وجه أخته ويقول لها ان زوجها يستطيع مباشرة جميع أعماله فى مولان لولا حاجته الى عــذر يبرر به انتقاله الى مكان ما .

ونظر باحثا عن قبعته ولكنه تذكر أن رئيس الخدم قد أخذها منه . وكانت مارتى تبكى . وكان من الصعب تصور هذين الشخصين فى السن التى كانا فيها والتى يفرض فى المرء عندما يبلغها أن يكون عاقلا .

ـ هل انت ذاهب ؟.

ـ نعم ..

ـ الا تنتظر وصول ادمون ؟.

ـ اطلبى اليه أن يحضر لمقابلتى صباح غد أى ان جد شىء ما .

ـ هل كنت تشرب ؟.

ـ لا .

وشعر بالضيق وكان الذى أثار ضيقه هو ذلك السؤال الذى خطر بباله فجأة ولأول مرة .

ـ لماذا عشت كالدب ثمانية عشر عاما ؟.

هل كان السبب هجر جنفياف اياه ؟.

ألم تكن حياته فى باريس فى أثناء طلب العلم مشابهة لما هو حادث الآن ؟. ألم يحاول وهو فى سن العشرين أن يحتفظ بوحدته وعزلته ما أمكنه ذلك ؟. ما دام فى صحبة الشعراء والفلاسفة دون سواهم ؟. ومع انقضاء الأعوام زادت الأمور اظلاما وكدرا .. هذا هو كل ما حدث .

ولما وصل الى البهو اختطف قبعته من يد كبير الخدم ثم استدار وحدجه بنظرات صارمة .

ماذا تراه يدور بخلد جوزيف ؟.

وكانت الحقيقة هى أن لورسا لم يحاول أن يعيش قط . كان هذا هو ما أثار انتباهه عندما غادر بيته تلك الليلة . ولـكن الشىء

الاكثر خطورة هو انه كشف عدم وجود اية رغبة عنده فى العودة الى البيت .

وكما حاول أن يسبن غور تفكير كبير الخدم عاد الى ظلال الليل وقد أضفت عليها الرطوبة غموضا .

ماذا قالت أخته ؟. ستأخذهم به رحمة فهم يرونه عجيبا سيىء الحظ .

انه يحتقرهم جميعا أسرة دوسان واسرة روجيسان وجميع الاخرين ممن يظنون انفسهم يعيشون لأنهم ...

وتصاعدت من معطفه المبتل رائحة الصوف وارتعشت قطرات المطر فوق شعر لحيته . وخطرت بباله وهو يمضى فى شارع اليه فكرة انه يجب عليه أن يبدو سيدا تقدمت به السن يمضى خلسة والخزى يغمره نحو بيت سيىء السيرة .

ومر بأحد البارات وكان زجاج نوافذه تعلوه طبقة من الضباب ويملأ جوه فى الداخل الدخان المتصاعد من السجائر ومع ذلك استطاع أن يرى داخل البار بعض الرجال يلعبون البلياردو وآخرين يلعبون الورق .

ولم يكن لورسا قد استطاع ان يفعل شيئا من هذا ولم يستطع قط أن يلتحق بأية جماعة مهما كانت هذه الجماعة . وشعر انه يحسد هؤلاء الرجال وانه يحسد جميع أولئك الذين يأتون ويمضون كما يشاءون .

ووصل الى بار الملاكمة ولم يتردد لحظة واحدة بل اندفع داخل البار وهز معطفه فتقاطر الماء منه .

وكانت الغرفة الصغيرة الخافتة الاضاءة وكانت هناك قطة نائمة على احدى المناضد . وكان صاحب البار جالسا يلعب الورق بالقرب من « بنك البار » مع امرأتين .

ولم يكن لورسا يدرك من قبل وجود أمثال هؤلاء النسوة فى مولان وجلس . ووضع جو أوراقه على المنضدة كما وضع سيجارته على طرف المنضدة وتقدم منه .

ـ ماذا يمكن أن أحضره لك ؟.

وطلب لورسا بعض الخمر الساخنة وأخذ جو فى اعداد هذا الطلب وهو ينظر من طرف عينه الى هذا « العميل » وكذلك أخذت

المرأتان بدورهما فى مراقبته كذلك وبدا من احداهمـا أنها تريد أن تتعرف به ولكن جو أشار اليها اشارة فهمت منها أنها انما تضيع وقتها عبثا .

وكان الهدوء يخيم على المكان . وكان الشارع هادئا أيضا اذ كان خاليا من المارة تقريبا .

وقال جو وهو يضع كأس الخمر على المنضدة ، أريد أن أقول لك بضع كلمات يا مسيو لورسا اذا سمحت لى بذلك .

ـ هل تدرى من أنا ؟.

ـ ربما عنـدما جئت أنت بعد ظهر اليـوم .. وأنت تعلم أنى سمعت .

وأشار بعينه اشارة ذات معنى الى منضدة فى ركن من البار كانت من غير شك المنضدة التى يجتمع حولها الشباب وقال :

ـ هل تسمح بالجلوس هناك ؟.

وجلس أمام المحامى وترك المرأتين تنتظران طويلا .

ـ يدهشنى أن البوليس لم يحضر بعـد لاستجوابى . وليس سبب هذا أن لى علاقة بالموضـوع . وان كان هناك من حاول أن يهدىء الشبان وأن يسدى اليهم النصح فانه أنا . ولكنك تعلم ما يكون عليه المرء فى مثل سنهم ...

وكان جو يتكلم براحة ومما لا شك فيه أنه سيتكلم بمثل هذا الهدوء أمام قاضى التحقيق .

ـ ولا حاجة بى الى القول بأنهم يتكلمون أكثر مما يفعلون . واذا أردت رأيى فانى أرى أن السبب فى كل هذه الكارثة هو السينما التى تعرض أفلام العصابات وما الى ذلك فهى التى توحى اليهـم بمثل هذه الأفكار . أما اذا كنت تعرفهم كما أعرفهم أنا فان جميع تصرفاتهم ليست أكثر من مجرد عبث وتمثيل .. وكثيرا ما حاولت أن أثنيهم عن مشروعاتهم الضارة .

ونظر نحو المرأتين .

ـ وتستطيع أن تؤيدنى فى هذا ... وكثيرا ما كنت أقول أنهم سيورطون أنفسهم فى المتاعب وسيورطوننى معهم أنا الآخر .

ـ وهم لا يبرحون هذا المكان الا عندما امتنع عن تقديم المزيد

من الخمر لهم وفى تلك الليلة عندما جاءوا بالفتى الجديد روبير توسل الى أن أعطيه بعض النقود مع رهن الساعة عندى وأعطيته عشرين فرنكا ولكنى لم أكن فى حاجة الى الساعة وأنت تعلم أنه فى هذه السن ...

وكان واضحا أنه مسحور بشخصية لورسا الذى لم يقتنع بما سمع . ماذا قالوا عنه لجو ؟. لا بد أنهم قالوا انه مخمور محطم .

وابتسم جو وأردف:

وكان يثير دهشتى دائما أنك لم تعرف شيئا ما عما يجرى فى بيتك .. وكانت السهرات تستمر أحيانا حتى الساعة الخامسة صباحا .

وطلب لورسا كأسا أخرى .

ونهض جو ومضى نحو البار ومر فى طريقه بالمرأتين ونظر اليهما نظرات ذات معنى فقامت احدى المرأتين وقالت انها خارجة فى نزهة .

وبعد دقيقة أخرى أو دقيقتين حذت المرأة الثانية حذو الأولى ولم يبق بالبار سوى الرجلين لورسا والملاكم فى ذلك الجو الهادىء.

ــ هل تريد أن تعرف رأيى ؟. لقد كنت أكثر الناس التقاء بهم ولا أقول انى كنت موضع سرهم فأنا نفسى لم أشأ هـذا وكانوا يحضرون الى هنا كل ليلة .. وكنت أسمعهم يتكلمون ولكنى لم أكشف لهم هذا . وابنتك مثلا .. أراهن على أنه ليس بينها وبين مسيو ادمون أية علاقة بل أقول أكثر من هذا . وهو انى واثق كل الثقة من أن مسيو أدمون لا يهتم بالنساء قط ... وأنا أعرف كثيرين بهذه الصفة . وأقسم أنه يتصف بالخوف والشخص المتصف به يسهل جره .

ــ أما بالنسبة لذلك الشخص الصغير ...

والشخص الصغير هو روبير مانو . وسر لورسا من أنه يسمع حديثا أبعد ما يكون عن العطف على ذلك الفتى .

ــ فى الليلة الأولى لمجيئه أشرت عليه بعدم الاختلاط بهم ...

وقد حدث مثل هذا مع الشخص الآخر لوسكا الذى يعمل طول يومه على أحد أرصفة السوق . هل تدرى ما أهدف اليه . ان الأمر

جائز مع شخص مثل مسيو أدمون يستطيع أن يستيقظ فى اية ساعة من النهار أما روبير فوراءه أسرة تستطيع دائما أن تخرجه من فراشه فى الساعة المحددة لذلك . وتستطيع من مجرد القاء نظرة عليه أن تعرف ان أسرته فى حاجة الى كل مليم . وما داموا فقراء فلا بد أن يبذلوا جهدا فى سبيل كسب القوت أكثر مما يبذله سواهم . ولم يكن الفتى قد شرب خمرا قط قبل أن يعرف هذه الجماعة .

ولم أرهم فى اليوم التالى ولكنهم كلفوا مسيو ادمون أن يبلغنى أنهم دهموا بالسيارة رجلا وأنهم نقلوا هذا الرجل الى بيتك حيث اعتنوا بعلاجه .

ـ وقلت له انه يجب عليه ابلاغ البوليس ..

وكان لورسا يحاول أحيانا اقناع نفسه بأنه فى هذا المكان ينصت ويريد أن يسمع المزيد وأن يوجه أسئلة الى جو .

ـ هل تعرف لوى الضخم ؟.

ـ لا ولكن سمعت قصته ولكنه شخص قذر جدا من ذلك النوع الذى قد يخنق طفلا فى غابة أو يضرب النسوة العجائز للحصول على ما لديهن من مال مدخر وأنت تعرف عن هذا الموضوع أكثر مما أعرف أنا فأنت محام . والغلطة التى ارتكبوها هى أنهم لم يتركوا الرجل فى الطريق .

وعندما وجد نفسه فى بيت كبير تسهر فيه على خدمته سيدة شابة ظن طبعا أنه يستطيع الاستفادة من هذا الوضع وخيل اليه أنه وقع على منجم ذهب الا أنه لم يساوم على مبلغ ما يستطيعون تقديمه له !.

وقدم سجائره للورسا كما لو كان صديقا حميما له ثم استطرد يقول :

وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنهم يشعرون بشدة وطأة هذا العمل على نفوسهم . لم يستمتعوا بوقت لهو كما تعودوا ان يستمتعوا وأخذوا يتحدثون همسا كلما اقتربت منهم . ولم يكن لى أن أتدخل فى شأنهم .

ولم يخطر ببالى كيف فكروا فى التخلص منه ، لأنه كان من

المستحيل على كل حال تركه فى البيت الى الأبد بعد أن أصبح جثة ولم يكن من السهل جر الجثمان حتى النهر .

وقد جاء مسيو أدمون فى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم عند خروجه من المدرسة . وكان أشد شحوبا منه فى أى وقت مضى وقد أحاط السواد بعينيه حلقات وتساءلت عما اذا كان من الواجب أن أقدم له شرابا .

وصاح يقول :

ـ انهم اغبياء يأخذون كل شيء مأخذ الجد .

ـ وراقبته وأنا أرجو أن يستمر فى الكلام ولكنه بدا مثقلا لايستطيع كلاما باعتباره ابن أحد اغنياء رجال الصناعة وباعتباره زعيم الجماعة كان هو الذى يقوم بدفع النقود نيابة عنهم فى أغلب الأحوال .

وكان لورسا مستغرقا فى سماع القضية استغراقه فى قراءة كتاب لم تفته كلمة واحدة أو أى شيء من التفاصيل . وشعر جو أن الرجل الذى أمامه قد أصبح مألوفا له ونهض واقفا وقال :

ـ والآن جاء دورى . وخطر ببالى بعد ظهر اليوم انك جئت تستجوبنى ثم تبينت أن القضية سوف تحفظ نظرا لمكانة الأشخاص الذين تتناولهم . وقد سمعت أن مسيو أدمون قد استدعى لاستجوابه .

ـ من قال لك هذا ؟.

ـ موظف البنك واسمه ديستريفر فيما أظن ولم استطع أن أفهم ماذا كان يعمل مع الآخرين . هل تعرفه ؟.

ـ لا . .

ـ انه فتى مديد القامة نحيف الجسم ـ وطبيعى أن اغلب الفتيان فى هذه السن مديدو القامة نحفاء الجسم ماعدا ابن الجزار ويبدو أن والد ديستريفر كان صرافا فى البنك مدة ثلاثين عاما وأنت تعرف نظام العمل فى البنوك وتستطيع أن تقرر ما وصل اليه من مركز الآن .

ـ الأب ؟.

ـ لا .. بل الابن .. وقد جاء هنا بدراجته بعد اغلاق البنك ويبدو لى أنه تلقى مذكرة من شخص ما !.

ـ طبعا ! من نيكولى . لم تستبعد أحدا واضطرت جوزفين الى السير فى جميع أنحاء المدينة .

ـ وسألنى عدة اسئلة عابرة . وأراد أن يعرف اذا كان من السهل على البوليس أن يعثر على أحد ما فى باريس . وقلت له ان الأمر لايستغرق أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر .

ـ أظنك ستتولى الدفاع فى القضية . وهم يقولون انك لا تظهر فى المحاكم ولكنك ان ظهرت فى المحكمة اسكت الجميع .. على كل حال اذا اردت شهادتى فانى قد قاسيت الكثير من المتاعب فى شبابى وكانت لى أحداث وأحداث أما الآن فصحيفة سوابقى نظيفة ولم يعد للبوليس أى حق فى التنقيب فى ماضى ومحاسبتى عنه .

ورأي لورسا انه قد آن له أن ينصرف ولم يرد أن يبقى ليسمع ولكنه كان كالطفل سحرته قصة ويخشى لحظة انتهائها .

وسأله :

ـ وما هو فندق نوايد هذا ؟ .

وحاول أن يقاوم رغبته فى طلب كأس رابعة .

وأزعجته عيناه . وشعر بالحرارة تملأ جسده ولابد له فى ذلك المساء من أن يحتفظ بسيطرته التامة على قواه .

ـ ليس فندقا بالمعنى المفهوم للكلمة . ويبدو أنه كان مناسبا لهم كمخبأ من خطر وهمى ولكنه متوقع واذا رأوا صديقا من أصدقائى ظنوه خارجا توا من السجن بل ان فكرة غريبة استقرت فى خواطرهم وهى أن البوليس يتعقبهم حتى لقد تعودت أن أخرج الى الشارع لانظر الأمر بنفسى .. وأظنهم جميعا أشتروا مسدسات ولكنى لا أظنهم سيستخدمونها لأنهم لن يستطيعوا ذلك ولكن ...

وقال لورسا :

ولكن واحدا منهم استخدم مسدسه .

وفى البيت دون أن يفطن أحد .. ان جماعة من الشبان ينهجون فى الحياة نهجا فيه انتهاك لحرمة الآخرين .

وكانت مارتى على حق . حين قالت :
ـ الأطفال !.
كانت الكلمة أصدق وصف لهم فان زعيمهم ادمون كأى واحد آخر منهم كان وديعا كالفتاة مع أمه أما فى الليل ...

ـ كم ثمن ماشربت ؟.
ـ ستة عشر فرنكا . وعندى اسعار خاصة للأصدقاء . هل تظن ذلك الشخص الذى ارتكب الجريمة سوف يفلت من العقاب على اساس الظروف المخففة ؟.
وهكذا تكلم جو كلام خبير متحاشيا بعض الكلمات . ولكن لورسا رد عليه قائلا :
ـ ان القضاة أخذوا يتشددون فى الآونة الأخيرة . فقد حدث فى مدينة روان أن حكموا على صبى فى التاسعة عشرة من عمره بالاعدام .
ومر لورسا عند ناصية الشارع باحدى المرآتين وكانت تمشى على مهل وهى ممسكة بمظلتها .
وقالت له بلهجة عابرة :
ـ طاب مساؤك .
حتى الآن لم يستطع ان يستقر على رأى بوجوب العودة الى بيته الى الغرفة التى دفن نفسه فيها ثمانية عشر عاما . ووصل الى ميدان الييه ورأى سيارة وأشار الى سائقها بالوقوف .
ـ هل تعرف فندقا باسم أوبرج نوابو ؟.
ـ انه بعيد عن هنا .
ـ اعرف ذلك .
ـ هل تريد أن أوصلك الى هناك ؟.
وهذا السائق الذى كان يبدو عليه انه ينتمى الى أسرة ناعمة العيش نظر الى المحامى نظرة فاحصة وبعد لحظة تردد فتح باب السيارة .
ـ ستكون الأجرة ذهابا وايابا ستين فرنكا .
كم انقضى من وقت لم يستقل فيه لورسا سيارة ، وخاصة فى الليل ؟ انه لايكاد يعرف الطريق خارج المدينة . ومرت السيارة بالمقابر ثم بالحى الجديد الذى يسكنه روبير مانو وامه .

وقال السائق وهو ينظر الى الوراء :

ــ هناك شيء يحترق .

كان لورسا قد ألقى عقب سيحارته على السجادة تحت قدمية وداسه بقدمه .

وقال السائق :

ــ انك ستجد الفندق مغلقا وأن كل من فيه قد آووا الى فراشهم .

كانت السيارة خاصة ولم يكن هناك حاجز بين السائق والراكب . وكان السائق يميل الى الحديث مع الراكب وكانت ماسحة المطر تروح وتغدو على الزجاج أمام السائق بصوت يثير الضيق . وأحيانا كانت تواجههما أنوار سيارة قادمة فى الطريق .

ــ سنرى . أظن انه يجب أن نستدير من هنا . انى لا أمربهذا الطريق كثيرا .

وعند نهاية الطريق وعلى بعد مائتى متر من مزرعة ذات جدران مغطاة بالملاط رأيا سطح ماء النهر ذى الشاطىء المنخفض الموحل وهناك بيت من طابقين وكان به ضوء .

ــ هل ستمكث طويلا ؟ .

ــ لاأظن ذلك .

وكان قد قرأ من الكتب مالاحصر له وهضم مافيها وتأمل ما احتوته وقد ظل أيامه يوما بعد آخر وسنة بعد أخرى وهو يتدبر مشاكل البشر ومع ذلك فقد ظلت عدة أمور يجهلها مثل كيفية دخول فندق او الجلوس امام منضدة .

بل انه لم يعرف بوجود مثل هذه الأشياء ومع ذلك فقد دخل متسللا وفى عينيه نظرة شك .

وكان المكان عاديا الا انه كان نظيفا وجدرانه يغطيها طلاء زاه . وكانت هناك اعلانات حائط وبار من خشب الصنوبر . ولكنه لسبب أو لأكثر لم يشعر أنه فى محل عام على الرغم من صفوف المناضد ومن الزجاجات على الرفوف كان الهدوء والألفة مخيمين على المكان كما لو كان مطبخا فى بيت أسرة رقيقة الحال . وكانت الستائر البيضاء على النوافذ مسدلة .

وكان هناك رجل جالس أمام احدى المناضد رآى لورسا فيه بائعا وقد يكون تاجر دواجن ولابد أنه الرجل الذى يملك السيارة التى رآها لورسا خارج الفندق .

وكانت هناك فتاة جالسة بجواره ولما انفتح الباب خطر للمحامى انه رأى الرجل يسرع بسحب يده من يدها .

والآن حدقا بالنظر اليه ، اما بدافع الفضول واما بدافع الضيق وربما بالدافعين معا أما لورسا نفسه فقد جلس أمام منضدة أخرى بعد أن أزال ماء المطر عن معطفه .

وسألته الفتاة بعد أن تقدمت اليه :

ــ ماذا يمكن أن أقدمه لك ؟.

ــ الخمر الساخنة .

ــ ان الموقد مطفأ وليس لدينا غاز الآن .. الا تشرب كأسا من الروم ؟.

وفتحت بابا فى آخر الغرفة ونادت :

ــ ماما ! .. ايفا !..

ثم عادت الى حيث كانت جالسة واعتمدت بمرفقيها على المنضدة وابتسمت لشخص كان على وشك النوم .

وسألته مستأنفة الحديث من حيث وقف بهما عندما دخل عليهما لورسا وقطع الحديث :

ــ ماهو جوابك ؟.

وكانت قد تركت الباب مفتوحا واستطاع لورسا أن يرى بعد الباب وجها أضاءه نور الغرفة التى كان جالسا فيها . وكان وجه امرأة فى الأربعين من عمرها تقريبا وقد أعدت شعرها للنوم .

وكانت تحدق اليه بالنظر ولما التقت عيناها بعينيه انسحبت بسرعة . ولابد أنها عادت الى أعلى اذ سمع وقع خطوات شخصين فوق سقف الغرفة .

وانقضت خمس دقائق ثم ظهرت ايفا وكانت تشبه الفتاة الأخرى كثيرا مما يدعو كل من يراهما الى الجزم بأنهما أختان . وبينما كانت تتقدم من لورسا تبين أنها فعلا كانت نائمة .

ــ هل طلبت شيئا ؟.

وقالت الفتاة الأخرى !
ـ طلب كأسا من الروم .
ـ كبيرة أم صغيرة ؟.
ـ كبيرة .
ووجد لورسا الأمر كله باعثا على التسلية . وعزم على الا يفوته شىء وحاول أن يتصور الجماعة من الشباب ونيكولى .. وروبير مانو الذى خرج تلك الليلة لأول مرة وهو مخمور .

وكانوا جميعا يرقبونه محاولين معرفة سبب حضوره الى هذا المكان . وعندما احضرت الروم لم تجد لديها الجراة على الجلوس امامه فوقفت لحظة بالقرب منه واخيرا ذهبت الى حيث وقفت وراء البار . واخرج التاجر محفظته .
ـ كم تريدين منى ؟.
ـ هل انت ذاهب ؟.
ونظر الى ناحية لورسا كمن يريد أن يقول !
ـ ان المكان مزدحم الليلة .
وحاولت اقناعه بالبقاء ثم صاحبته حتى الباب ، ولابد أن تكون قد قبلته خارج الباب .
وعندما عادت داخلة بدا عليها الاكتئاب والقلق ولكنها بذلت جهدا كبيرا حتى تبدو متألقة .
وقالت للورسا :
ـ ان الجو رهيب .

ثم قالت بعد لحظة :
ـ هل انت من هذه الناحيـــة ؟ أم انت مســافر من مكان الى آخر فى اعمال ؟.
ثم استمرت فى قولها :
ـ أشعر بالعطش يا ايفا .. هل تطلب لى كأسا من الليمونادة ياسيدى .

واحس ان الام قد هبطت على السلم وانها تطل عليه من وراء البـــاب من وقت لآخر وشـــعر بأنه ضبط متلبســـا بعمـــل غير لائق .

ـ فى صحتك .. هل تقدم لايفا هى الأخرى كأسا ؟.
وأخيرا أصبح الثلاثة جميعا جالسين أمام المنضدة فى صمت ثم أخذت الفتاتان تتحدثان مع النظرات المتبادلة وأدرك لورسا هذا فشعر بالقلق .

ـ كم حسابكم ؟.

ـ تسعة فرنكات ونصف فرنك .. أليست لديك فكة ؟..أظن لديك سيارة .

ووجد السيارة وقد استدارت استعدادا للسير .

ـ لم تجد راحتك هنا .. لقد قلت لك ان المكان غير لائق ـ انهن يدللنك طول الليل وتظن انت أن الأمور تسير على ما يرام .. أما عن الباقى ..

واشتد ارتباك لورسا مختلطا بشىء من الرضا لشعور الآخرين بانه رجل يقطع الأميال خارج المدينـــة بحثا عن مكان يجد فيـــه استمتاعا مع الفتيات .

ولم يستطع معرفة ارتباط هذا الشعور بأختـــه مارتى . انه يستطيع أن يراها واقفة فى ثوبها الأخضر الشاحب وقد صفعها على وجهها . كان يرجو أن تكون معه الآن .

وسأل لورسا السائق :

ـ هل يأتى كثيرون الى هذا المكان ؟.

ومال الى الأمام ليلتقط رد السائق .

ـ أغلبهم من الزبائن العاديين . الشبان الذين يريدون العبث ولا يملكون القيام به فى المدينة .

لم يكن هناك ضوء فى الحى الجديد المجاور للمقابر ذى الشوارع التى لم يتم رصفها بعد حيث يقيم روبير مانو . وفى بار الملاكمة كان وراء الستائر شبحان .

ـ أين تريد أن تصل ؟.

ـ لا أهمية لذلك .. هنا .. عند الناصية .

وأراد أن يقضى ليلته بعيدا عن بيته .

وسار فى الشارع يستعرض البيوت واحدا واحدا وهى كبيرة مثل بيته .. وكان يكره هذه البيوت ومن يقيمون فيها كما كان

يكره أخته ويكره دوسان وروجيسار وزوجته ودوكد ومساعديه وكثيرين جدا غيرهم ممن لم يؤذوه قط وكل جريمتهم أنهم في الجانب الآخر من المتاريس حيث كان من المحتمل أن يكون هو الآخر لو لم تهرب زوجته مع رجل يدعى برنار ولو لم يقض ثمانيـة عشر عاما مغلقا على نفسه باب غرفة مكتبه .

ولم يتطرق اليه شك فى أن نيكولى قد قاومت دوكد وأرسلت المذكرات لمن تريد فى جميع أنحاء المدينـة غير الملاكم وروبير مانو وأدمون دوسـان وموظف البنك ولوسكا البائع على رصيف السـوق .

ومكث المحامى فى تأملاته هذه وهو يبحث فى جيبه بدافع غريزى عن مفتاحه ودق الجرس وهو يعلم أن جوزفين تخشى هبوط السلم وأن نيكولى تنام نوما عميقا .

ودار حول البيت ودخل الحارة المسدودة حيث باب الخدم ووجده مفتوحا وهكذا دخل بيته .

وأحس أنه أصبح أحد أعضاء العصابة .

— ٢ —

وتمدد فوق فراشه ورأى جوزفين فى الصباح تتسلل نحوه فى حذر فلم يملك الا أن يبتسم وسألها :

— ماذا تريدين ياجوزفين .

— انها رسالة .

— هل توقظينني من اجل رسالة ؟.

— أحضرها أحد رجال البوليس وقال انها عاجلة .

وبعد ان استعاد لورسا شعوره لاحظ التغيير الذى طرأ على سلوك جوزفين . كانت فى حالة قنوط شديد وكأنها قد فارقتها الحياة . وبدت الحرب الخفية بينهما وقد توقفت فى هـدنة .

ووقفت تنتظر ان يقرأ الرسالة وبعد أن قراها سألته :

— هل فيها انباء سيئة ؟.

— المدعى العام يطلب منى الذهاب الى دار العدل هذا الصباح .

ولابد أن يكون قد أدهشها أن تراه ينهض بهـذه السرعة وأن يرتدى ثيابه فى مثل هذا الوقت .

وسألها وهو يتم ارتداء ثيابه :

ـ هل استيقظت نيكولى ؟.

ـ لقد خرجت منذ وقت طويل .

ـ كم الساعة الآن ؟.

ـ الحادية عشرة وعندما خرجت الآنسة نيكولى لم تـكن الساعة قد بلغت العاشرة .

ـ هل تعرفين أين ذهبت ؟.

كانت بينهما هدنة عندئذ . وترددت جوزفين قبل الردوخرجت من هذا التردد بوجوب اطلاعه على كل شيء .

ـ لقد جاءت أم روبير واصطحبتها معها .

ثم قالت بقسوة كأنما لورسا هو المسئول .

ـ لقد قبضـوا على مسيو روبير هذا الصـباح . وقد حاول الانتحار .

ـ الانتحار ؟. وبأية وسيلة ؟.

ـ بمسدس .

ـ هل ألحق بنفسه أذى ؟.

ـ لا فالمسدس لم ينطلق .. وعندما سمع رجل البـوليس يكلم أمه فى البهو . جرى الى الغرفة التى بالسطح حيث ..

وأخذت جوزفين تعد الفراش على حين كان لورسا يرتدى معطفه الذى كان به بعض البلل من أثر أمس . ووضع قبعته على رأسـه . وكان الهواء فى الخارج شديد البرد .

اذن كان أول ما فكرت فيه أم روبير مانو هو الحضور الى نيكولى والعثور عليها وتوجيه اللوم اليها وهى فى أعماقها ترى أن الفتـاة غير مسئولة .

وأى عار شعرت به المرأة وهى تعبر الشارع باكية من غير شك تحدث نفسها ثم ترجو من نيكولى ان تفعل شيئا .

وخرجتا معا تدافعان عن روبير تاركتين لورسا فى رعاية جوزفين وبدأ لورسا يفهم المذكرة التى وصلت اليه . لم تكن مـذكرة رسمية .

صديقي العزيز :

يبدو مستحيلا الاتصال بك تليفونيا . فهلا تفضلت بالحضور الى في مكتبي بأسرع وقت ممكن .

سأكون في انتظارك .

. جيرار روجيسار

ولاحظ لورسا أن روجيسار قد أغفل الختام الودي للرسالة ولم يخطر ببال المحامي أن يتخذ موقفا ما بالذات وهو يدخل دار العدل ومع ذلك فعندما اجتاز بهو المحكمة وهو زاخربالمشتكين والمتهمين والشهود وزملائه المحامين بدا عليه على الرغم منه مظهر الرجل الذي يقدم على معركة ودس يده في جيبه وصعد في السلم بسرعة في طريقه الى مكتب المدعي العام .

وعند رأس السلم رأى امرأتين جالستين على أريكة وقد استندت رأساهما على الجدار ذي الطلاء الأخضر . أولاهما في ثياب سوداء وهي أم روبير مانو ويدها قابضة على منديل وجارتها نيكولى وقد بدا عليها أنها تعطف على المرأة وان لم تشاركها في شعورها .

ولم تكن أم روبير تبكي الآن ولكن لابد أنها كانت تبكي قبل ذلك اذ كان في عينيها نظرات شاردة . وكان هناك آخرون ينتظرون أيضا وعلى نفس الأريكة رجل عجوز وعلى الأريكة الاخرى مجنونة بين رجلي بوليس .

ومر لورسا بالمرأتين متظاهرا بعدم رؤيتهما وفتح باب روجيسار دون أن يطرقه .

وتحاشي المنظر المؤلم في البهو الخارجي ولما دخل الغرفة وجد رجلين واقفين بالنافذة واستدارا معا في وقت واحد عند دخوله .

وقال روجيسار :

ــ آه أخيرا !.

وذهب الى مكتبه حيث جلس .

وكان الرجل الآخر هو دوكد وهو يشبه الفأر . ولاحظ لورسا أن كلا الرجلين اتخذ مكانه بحيث يكون بعيدا عنه وبحيث لا يمد يده مصافحا .

ـ اجلس ياهيكتون .. أعتقد أننا جررناك من فراشك .
وهكذا جمع روجيسار فى معاملته للورسا بين الرسميات فى الجزء الأول من عبارته وكأنه يخاطب متهما عاديا ثم أصلح الأمر بالجزء الثانى من عبارته الذى فيه ألفة الأهل والأصدقاء وزملاء الدراسة .
أما دوكد فقد وقف وقفة المتفرج الذى يعلم مقدما ما سيحدث ويستمتع بما يشاهد .
وقال المدعى العام :
ـ ان ماحدث يشغلنى كثيرا ولهذا لا أريد أن أخفى عنك شيئا . ويجب أن أطلب اليك الاحتفاظ بهذا السر . لقد أتيت أمرا لم أقدم عليه قط فى حياتى الماضية . فقد اتصلت بوزير العدل شخصيا استشيره .. ولقد فهمت طبعا أننى استدعيتك الى هنا رسميا لأننا رأينا أنا ودوكد أن نطلب منك مساعدتنا فى توضيح الأمور لنا .
وقد استجوب دوكد دوسان بالأمس وحضرت بنفسى بعض هذا الاستجواب . وأنت تعرف الفتى طبعا فهو ابن أختك .

واعترف لك بأنى أسفت له . وقد قابلته من قبل طبعا اذ كثيرا ما تناولت طعام العشاء مع والديه واعرف أنه رقيق جدا وفيه شيء من الرخاوة والأنوثة فيداه وعيناه كيدى وعينى امرأة .
وقد كشف وهو فى مكتب دوكد عن حساسية مرضية وكان شديد العصبية الى درجة دفعتنى الى التفكير فى استدعاء طبيب .
وبعد كثير من اللف والدوران تكلم ...

وأدهش لورسا الرجلين بتصرفه وقتئذ . فنهض من مقعده وخلع معطفه ثم ذهب به الى حيث علقه بالدولاب وأخرج من جيب المعطف بضع سجائر ثم عاد الى مقعده ووضع ساقا على أخرى وأخرج من جيب سترته كراسة صغيرة فتحها فوق ركبته وهز يده بقلم رصاص .
ـ هل يمكن ؟.
وخيم السكون دقيقة أو دقيقتين اذ فوجيء روجيسار ودوكد بمسلك لورسا وتساءلا عما اذا كانا يعتبران هذا تهديدا لهما .

ـ أظنك تعلم ما سأقوله لك وما سيعرفه كل واحد قبل أن تنقضى بضع ساعات لأنه من المستحيل كتمان قضية تدور حول حادث قتل . ويرى الوزير نفس رأيى من أن أدمون دوسان لم يكن فى هذا الحادث أكثر من أداة مساعدة بل لقد كان ضحية الى حد ما . ولقد كانت جماعة من الشباب ترتاد بارا قريبا من السوق منهم من ينمتون الى أسر كبيرة وغيرهم مثل ابن الجزار .. وابن ..

ـ أعرف ذلك ..

ـ فى هذه الحالة أنت تعرف أن ابنتك كانت محور هذه الجماعة وأن بيتك كان مقر قيادة الجماعة . وأنا آسف جدا لأن الفضيحة سوف تتناول أفضل عائلات المدينة . وسيكون من العسير على المحلفين فى المحاكمة العلنية أن يصدقوا أن جماعة كاملة من الشباب استطاعت أن تجتمع ليلا فى بيت ترقص فيه على أنغام الفونوغراف ويشربون الخمر دون علم رب البيت .

وأومأ دوكد برأسه .

ـ وما كانت الأمور لتمضى طويلا على هذا النحو لو لم يختلط بهم شاب جديد اسمه روبير مانو الذى اقترح فى الليلة الأولى لالتحاقه بهم أن يسرقوا سيارة أو استعارتها ان شئت لمتابعة سهرتهم فى فندق ريفى .

ويبدو فيما تلا ذلك من أحداث أن أدمون دوسان كان الوحيد الذى أظهر شيئا من الاحساس بالمسئولية اذ كان هو الذى استدعى الدكتور ماتريه وطلب منه مراعاة السرية المطلقة .

وهناك ناحية معينة من القضية اضطررنا لتحقيقها . وأقصد بها العلاقة بين أدمون ونيكولى . وأنا مقتنع بما قال الفتى لى من أنه ليس بينهما أية علاقة .. لقد كانا يتسليان فحسب أمام أصدقائهما وأمام الغرباء بتمثيل دورى العاشقين ولكن ذلك كان مجرد تمثيل وأرجو أن تعذرنى لهذا العمل من جانبى .. ولكنى لا أظن هذا صحيحا بالنسبة للعلاقة بين روبير مانو ونيكولى .. فان وجود الرجل الجريح أعطاه عذرا مبيحا للذهاب الى هناك كل ليلة .

ولدى ما يحملنى على تصديق أن المـــريض كان ذا تأثير على الشاب . وأظنك مستعدا للاعتراف بخبرتى فى علم الجريمة . . وروبير مانو يقع فى قائمة نوع معين من المجرمين وهو نوع السريعى الانفعال الذين قد يصبحون قديسين أو رواد سجون ولا يحـدد قصدهم فى هذه الناحية أو تلك ســوى وقوعهم تحت تأثير طيب أو تأثير شرير .

وبينما يهزل الآخرون يأخذ هو الأمور مأخذ الجد . .

ولا أقول أن أدمون قال هذا ولكن من المستحيل استـنتـاج اية نتائج أخرى غير هذه النتيجة مما قاله لنا .

وليس لدى أدنى شك فى أن انضمام روبير مانو الى الجمـاعة قد أحدث تغييرا كثيرا فى نشاطها وأعتقد أنه كان من المحتمل أن تتطور اعمالها الى السطو على المنازل .

وقد يهمك أن تعرف ماحدث خلال الاسبوعين اللذين قضاهما لوى الضخم فى بيتك فقد أرسل هذا الرجل عدة اذونات ماليـــة بلغت جملة قيمتها ٢٦٠٠ فرنك الى امرأة تعيش الآن فى قرية من قرى نورماندى لها منه ثلاثة أبناء . . وقد تعقبنا أثر هذه الأذونات المالية وعرفنا من نتيجة البحث أين توجد هذه المرأة وارسلت أمرا الى هونفلير لاستجواب المرأة كما أمرت باحضارها الى هنا .

ويمضى بنا هذا كله الى ما أعتقد أنه الحقيقة وذلك بفضـل براعة دوكد ومهارته فى التحقيق الذى قام به والذى نشكره له .

وسعل لورسا . كان هذا هو كل ماحدث منه وهو يرسم بالقلم الرصاص فى الورق الذى معه .

ولابد أن يكون روبير مانو هذا قد وقع تحت تأثير لوى الضخم وأصبح أداة فى يده فارتكب عدة أعمال غير لائقة لأن المبلغ الـذى أرسله لوى الضخم طبقا لما قاله دوسان لم يكن له من مصدر سوى روبير مانو . . هل اصبح لوى الضخم شديد الضغط عليه ؟. هل كان روبير مانو هو الذى قرر أن يسكته الى الأبد ؟.

واستطرد المدعي العام يقول فى جدية وكأنما لورسا لايعرف ما يقوله :

ـ لقد أمرت هذا الصباح بالقبض على روبير مانو .. وهو هنا .. وسأستدعيه فى مدى بضع دقائق .

ونهض روجيسار واتجه بعيدا عن مكتبه وذهب الى النافذة .

ـ ومن المؤسف أشد الأسف ان ترى ابنتك أنه من الملائم أن تأتى فى اندفاع الى هنا بصحبة أم الفتى . وهما خارج الغرفة فى البهو ولابد ان تكون قد رأيتهما .. وقد بذل دوكد قصارى جهده فأخذ نيكولى جانبا فى هدوء وحاول أن يجعلها تفهم عدم لياقة ما اقدمت عليه من عمل ولكن لم تسفرجهوده عنأية نتيجة .. وفى هذه الظروف اذا اضطررت لاتهام الفتى فسيصعب علىالناس أن يرووا سببا ..

ورفع لورسا رأسه قائلا بصوت هادىء الى درجة تثير العجب :

ـ سبب عدم القائك القبض على نيكولى أيضا .

ـ اننا لم نصل الى هذه النقطة بعد بحمد الله .. وعلى كل حال رأيت أن الأفضل أن أرسل فى طلبك وأنت صاحب المكانة المرموقة فى مدينتنا .. ويحترمك الناس لأن كل واحد يعرف مامر بك من أحداث سيئة . ويغتفر الناس لك مايبدو منك من تصرفات متطرفة و..

ودفعت هذه الملاحظة لورسا الى أن يدرك أنه لم يشرب كأسا واحدة من الخمر ذلك الصباح .

ـ ولا أظننى فى حاجة الى أن أقول المزيد .

وسعل لورسا مرة أخرى .. وتبادل المدعى العام وقاضى التحقيق النظرات التى كانت تنطق بالقلق . ومما لاشك فيه انهما كانا ينتظران منه أن يتوسل اليهما ضارعامتذللاأو ينهار انهيارمخمور كما يبدو لخاطرهما .

ـ هل لديك دليل ضد روبير مانو ؟

ـ انه افتراض قوى على أية حال . فقد كان فى بيتك وقت ارتكاب الجريمة ونيكولى اعترفت بهذا . ويبدو أنها تمجد قضاءهذا الشاب الأمسية فى غرفة نومها . هل بدأت تفهم ؟ .

ـ بودى أن أحضر استجوابك روبير مانو .

ـ هل ستقوم بالدفاع عنه ؟ .

ـ لم يستقر رأيى على شىء بعد .

ـ اسمع ياهيكتور :

وأشار روجيسار الى دوكد فخرج من الغرفة وهو يشعر بالحرج .

ـ نحن أقارب . وزوجتى مضطربة جدا بشأن هذه القضية . . وقد اتصلت أختك بى تليفونيا هذا الصباح . . وادمون راقد فى فراشه . . وهم منزعجون بشأن حالته الصحية لأنه فى حالة عصبية قاسية . وعاد شارل من باريس هذا الصباح . واتصل بى تليفونيا . ولا أكاد أجدنى فى حاجة الى أن أقول لك كم هو ثائر عليك وقد دبرت الأمور كلها هذا الصباح . وعندما ذهبوا للقبض على روبير مانو كان مختبئا فى غرفة تحت سطح بيت أمه وحاول الانتحار ولكن السلاح لم ينطلق وربما كان سبب هذا شدة انفعاله ولونجحت المحاولة لوفر علينا كثيرا من الجهد .

ـ هل تثبت هذه المحاولة أنه مذنب ؟ .

ـ ولكن لنفرض أنه أراد الانتقام لنفسه فجر معه ابنتك وادمون وجميع أصدقائهما .

ولاشك انك توافقنى على ان المدينة كلها واقرباءك واصدقاءك قد احترموا رغبتك فى العزلة وقتا طويلا وسكت الجميع على غرائبك ومبالغاتك . أما اليوم فالموقف خطير بل محزن .

واشعل لورسا سيجارة واقترح استدعاء روبير مانو .

وكان مر تأثر ولكن تأثره لم يكن على النحو الذى تخيله غيره بل كان شأنه فى تلك اللحظة شأن الشاب الذى ينتظر أول لقاء غرامى له .

كان ينتظر روبير مانو ! وكان فى تلهف على رؤيته ! وحسد

جوزفين التى جابت انحاء المدينة فى اليوم السابق توزع مذكرات نيكولى . وحسد ابنته الجالسة على ريكة خشبية بجوار رجال البوليس واللصوص وبجوار أم باكية وتتحدى بهدوء فضولى المتطلعين اليها فى مرورهم بها .

وقد حدث له شيء غريب . فقد خرج من منزله الى المدينة . وكان قد راقب نيكولى وهى جالسة أمام المائدة وراقبها عندما غابت الخادمة وقامت هى بالخدمة .

وكان قد راقب روبير .. وانصت الى جو الملاكم وذهب الى الفندق وفيه الأم وابنتاها . والأم فى ثياب النوم ترقبه من خلف الباب .

أراد أن يخرج من وكره الذى صفت فيه الكتب فغطت جدرانه وأحكم عزلته فلا يصل اليه صوت من الخارج . وأراد أن يندفع خارجا .

أراد أن يقول لنيكولى :

ـ لاتنزعجى .. وأن يجعلها تفهم أنه سيقف الى جانبها . وأنه سيؤيدها هو وجوزفين وروبير مانو وأمه .

وراقب الباب فى تعجل وأنصت للأصوات خارج الباب ووقع خطوات رجل البوليس . وبدت صرخة مكتومة من أم مانو وأصوات أخرى فهم منها أنها ألقت نفسها على ولدها ثم أبعدت عنه بالقوة .

وانفتح الباب وأطل رجل بثياب مدنية ونظر نظرة متسائلة وأشار اليه المدعى العام فاختفى ثم عاد بعد لحظة بالشاب .

وقال روجيسار :

ـ سيسألك قاضى التحقيق بضعة أسئلة . ولن تسجل أجوبتك اذ ليس هذا تحقيقا رسميا فلك أن تتكلم بكل حرية .

ورأى الفتى لورسا قبل أن يرى أى شخص آخر .

وتراجع لورسا وانكمش لأنه استطاع أن يقرأ فى تلك النظرة اتهاما وأن روبير يعتبره مسئولا عن محنته الحالية .

وبدا عليه انه يقول بنظراته تلك :

ـ لقد جئت إليك صريحا وفتحت قلبى لك وبكيت بين يديك ثم أجدك هنا . انك انت الذى أمرت بالقاء القبض على . انت الذى . . .

وترك الفتى واقفا ، ولم يكن مديد القامة ، وكانت يداه ترتعدان على الرغم مما كان يبذله من جهد لضبط نفسه .

وحسده لورسا لا لأنه فى مثل هذا الشباب يخيم عليه اليأس وينتابه دوار وهو يشعر أن الأرض تميد تحت قدميه بل لان هناك أمه الباكية من أجله ونيكولى التى لن تتخلى عنه وجوزفين التى تبنته .

لقد كن يحببنه بدون تحفظ وكن شديدات الولاء له قد يعزيه العالم وقد يدينه وقد يقضى عليه بالاعدام ومع ذلك فهناك أولئك النسوة يؤمن به .

وأدار الفتى وجهه عن لورسا ونظر نظرات فاحصة الى دوكد الذى جلس امام المكتب على حين أخذ المدعى العام يذرع الغرفة رائحا غاديا .

ـ لقد كان المدعى العام كريما معك حين أوضح لك .

ـ لم أقتل لوى الضخم .

وخرجت الكلمات من فم الفتى كما لو كان ذلك نتيجة لضغط لاسبيل الى مقاومته .

ـ أرجو ألا تقاطعنى . . حين أوضح لك أن هذا ليس تحقيقا رسميا بل هو حديث خاص من الممكن . . .

ـ لم أقتله .

وبسط الفتى يديه واعتمد بهما على المكتب .

ـ لن أسجن . . فأنا . .

ودار على عقبيه وواجه لورسا وبدا منه كما لو كان يريد أن يهجم عليه بأنيابه ومخالبه .

ـ انه هو . . هو الذى . .

وقال المدعى :

ـ اهدأ . . أرجوك . .

وطأطأ لورسا رأسه احساسا منه بالخجل لأنه لم يستطع أن يكسب ثقة روبير ولا نيكولى ولا جوزفين ولا أم روبير .

وقال المدعى :

ـ أنا الذى طلبت الى مسيو لورسا أن يحضر هذا الحديث وذلك بسبب الموقف العجيب الذى وجد نفسه فيه .. ومثل هذه الأمور لا أنتظر منك ان تفهمها . فأنت صغير وسريع الانفعال وقد تصرفت بغير تفكير ولسوء الحظ ..

ـ وهل تظن انى قتلت لوى الضخم ؟.

واشتدت رعدة روبير الآن ولكن لورسا كان واثقا أن مبعث هذه الرعدة هو الخوف بل كان مبعثها الغضب والعجز عن توضيح موقفه ـ وهو وحيد ـ ضد الجميع ومحاصر وهو فريسة بين يدى قاضيين ولورسا الذى كان روبير يعتبره وحشا ضاريا قابعا فى ركن يتحين فرصة الانقضاض .

ـ ليس هذا صحيحا . ولكن الصحيح هو انى سرقت . وان الآخرين سرقوا .

وبكى بغير دموع ولكن ملامح وجهه فى انقباضاتها وتقلصاتها وانفراجها كانت رؤيتها تثير الألم والرثاء .

ـ ليس لكم الحق فى القاء القبض على وحدى ... لم اقتله . قلت لكم لم اقتله .

ـ اهدأ ... اهدأ .

وخاف المدعى العام فان صوت روبير لابد أن يكون قد تسرب الى خارج الغرفة .

ـ ولقد جاءوا بى مقيد اليدين كما لو كنت ...

واندهش الجميع عندما صاح دوكد قائلا :

ـ الصمت !.

وجاءت هذه الصيحة مفاجئة الى درجة انها اسكتت روبير تماما وجعلته ينظر فى حيرة مضحكة الى قاضى التحقيق .

ـ انت هنا لترد على اسئلتى لا لتقوم بتمثيل غير مهذب .

وترنح روبير وبدت ساقاه عاجزتين عن حمله وتصبب العرق على شفته العليا وصدغيه .

ـ اذن فأنت لا تنكر انك استعرت ـ لاحظ التعبير المخفف ـ سيارة لتقودها وفيها اصدقاؤك الى الريف . وهى سـيارة نائب العمدة وانك ارتكبت حادثا بسبب عدم خبرتك فى قيادة السيارة او بسبب سكرك الشديد .

وتجهم روبير وتفضن جبينه ولم يستطع أن يدرك معنى ما قيل له . صحيح انه سمع كل شيء بوضوح ولكن الكلمات كانت اصواتا أكثر منها معانى وكان من العسير عليه أن يركز ذهنه على السيارة . وكانت العبارات طويلة وكان دوكد شديد الهدوء شديد المرونة ..

ـ مما هو جدير بالملاحظة انهم حتى ذلك اليـوم أو حتى تلك الليلة على وجه التحديد لم يعرف عنهم أنهم أساءوا السـلوك قط أو أنهم آذوا أحدا .

ونظر روبير حوله مرة أخرى . والتقت عيناه بعينى لورسا .

وقال دوكد :

ـ انظر الى أنا وأجب عن اسئلتى .. متى عملت مساعدا فى مكتبة جورج ؟.

ـ منذ سنة .

ـ وقبل ذلك ؟.

ـ كنت فى المدرسة .

ـ ألم تعمل عند سمسار فى شارع غمبتا ؟.

ولمعت عينا الفتى ببريق التحدى وصاح :

ـ بلى عملت .

ـ الا تحكى لنا ظروف تركك هذا العمل ؟.

ولم يتلعثم الفتى وهو يقول :

ـ طردنى مسيو جولدشتاين الذى كان يدفع لى اجرا شهريا قدره ٢٠٠ فرنك بشرط أن استخدم دراجتى فى قضاء مهماته لأنه وجد عجزا مقداره ١٢ فرنكا فى رصيد النقدية .

ـ النقدية .. نعم كنت على وشك الحديث فى هذا . الم تكن النقدية فى عهدتك ؟ وعندما ثارت شكوكه فيك أخذ يراقبك واخيرا وجدك تفتش فى الطوابع والرسائل المسجلة وأجور السيارات ..

وطال الصمت الثقيل . وتساقط المطر وكان الصمت خارج الغرفة اشد رهبة منه فى داخلها .

وكان المدعى العام يشير الى قاضى التحقيق بتجاوز التفصيلات ولكن الأوان قد فات واستمر دوكد بصوته الحاد :

ـ ماذا قلت ؟.

صمت ...

ـ اظنك تعترف بهذا ؟.

واستطاعوا ان يروا التنهد وهو يتصاعد فى صدره . ونظر مانو حوله وقال :

ـ ليس لدى ما أقوله .

وأخيرا استقرت نظراته على لورسا . وقد تغير التغيير المرتسم على وجهه كما لو كان الشك قد تسرب الى خاطره .

- ٣ -

وبعد نصف ساعة ذاع فى جميع انحاء دار العدل ان لورسا تولى الدفاع عن روبير مانو . وكان المحامى لا يزال فى مكتب المدعى العام .

لقد بلغت الشفقة بلورسا حد رجائه من الفتى أن يوكله فى الدفاع عنه .

وفوجىء روجيسار ودوكد باصرار الفتى على رفض الاجابة عن أى سؤال . وذهبا الى النافذة يتشاوران همسا . وعندما عاد دوكد الى المكتب سعل ثم قال :

ـ من واجبى أن أبلغك أن القانون يسمح لك بتوكيل محام عنك وأن تطلب حضوره كل استجواب لك .

وعندما ذكر كلمة محام نظر روبير مانو الى لورسا . وكان ذلك مجرد تداعى المعانى . وتحمس لورسا لمساعدة روبير وشعر أن هذه الرغبة قد ارتسمت بوضوح فى جميع ملامح وجهه فأدار وجهه الى الناحية الأخرى .

ولم يفهم الرجلان الآخران روجيسار ودوكد ذلك لأن الامر كان أبسط من أن يخطر بعقليهما الناضجين .

ولم يثق روبير بلورسا أولا وقال فى نفسه :

ـ وربما كان هو السبب فى انى هنا الآن .. وهو غاضب منى لأنى عرضت أسرته للخطر ... انه من طبقة هؤلاء القوم ..

ثم عاد وقال وهو ينظر الى عينى لورسا نظرة فاحصة :

ـ اختار مسيو لورسا !.

وكأنه بهذا يريد أن يقول :

ـ لست خائفا منك ! ليس لدى ما اخفيه . ولا أعرف ما اذا كنت عدوا أم صديقا ولكنى أضع نفسى بين يديك تماما ولن تجرؤ من الآن فصاعدا على التخلى عنى !.

وتبادل المدعى العام وقاضى التحقيق النظرات . وهرش دوكد طرف أنفه بقلمه . أما لورسا فقد رد ببساطة قائلا :

ـ اقبل الدفاع عن روبير مانو ايها السادة وفى رأيى أنه فى هذه الحالة سيكون من الضرورى بعد بضعة اسئلة أخرى بشـــأن التعريف بشخصية المتهم . أريد اعطائى فرصة من الوقت لدراسة ملف القضية ..

وطلب قاضى التحقيق كاتبه .

وعندما خرج لورسا من الغرفة وقفت المرأتان فى وقت واحد ونظرت نيكولى الى ابيها نظرة حادة وكان بها فضول ولكنها كانت فى حذر فقررت الانتظار لما يحدث .

اما أم روبير مانو فانه لا ينتظر منها أن تنظر الى الأمر بهدوء

ودخل الثلاثة غرفة الانتظار معا ولورسا يتوسط المرأتين وهو ينظر الى كل شىء حوله وعلى وجهه اكتئـــاب وملل . وكان بعض الناس ينتظرون متعمدين الانتظار على أمل ان يلقوا نظرة عليهم .

ولم تستطع ام روبير الكف عن الأسئلة .

ـ لماذا يستبقونه؟ لا حق لهم فى ذلك مالم يكونوا قد استطاعوا اثبات شىء ما .. انهم الآخـــرون .. أؤكد لك ذلك . أنا أعـــرف جيدا . انهم الآخرون هم الذين دبروا له ذلك .

وابتسم الواقفون وبدا على لورسا أنه راض عن هذا المـــوقف وكان هذا مثيرا للعجب وكان منظر أم روبير مثيرا للعجب والرثاء معا وفى بعض اللحظات كان موقفهما مثيرا للشجن .

وقالت أم روبير للورسا ان ابنها نادرا ما كان يخرج من البيت وهى تنصحه بمصاحبة بعض الشبان من سنه وقضاء بعض الوقت

معهم ، وعرف لوسكا ولم ترتح هي الى هذه المعرفة التي اسفرت عن تعود روبير السهر .

ولم يكن لورسا منصتا لما تقوله المرأة بل كان يوجه نظراته الى نيكولى التى ظلت واقفة تنتظر فرصة للانصراف ثم نظر الى المرأة وهى تقول له انها مستعدة لأية تضحية فى سبيل تبرئة ابنها ولو كلفها الأمر أن تقضى بقية حياتها على الخبز والماء .

وجاء طالب حقوقى واستمع الى الحديث ثم اسرع الى الشارع وعاد ومعه أحد المصورين ليبعث بالصورة والخبر الى صحيفة باريسية واستأذن من لورسا فلم يمانع . وبعد ان انتهى التصوير قال لورسا لابنته :

ــ خير لك أن تأخذى مدام مانو الى بيتها وستمطر السماء غزيرا فخذا سيارة .

ولقد كان معهما ولكنهما لم تستريحا اليه وقدأدرك هذاوخاصة فى ساعة تناول طعام الفداء الذى أعدته جوزفين وقامت بتقديمه بنفسها اذ كانت فى لهفة لسماع الأنباء فأخذت تمطر نيكولى بالأسئلة فى وجود لورسا اذ لم تكن تثق به ولم تكتف بتحديه بل تجاهلته أيضا .

ــ ماذا قال ؟ .

ــ لم يقل شيئا يا جوزفين . وقد اختار أبى للدفاع عنه .

وكان لورسا يأكل وزجاجة الخمر على مقربة منه كالعادة وكان بوده ان يشترك فى الحديث ولكنه ظل صامتا واخيرا قال :

ــ سأقابله فى السجن بعد ظهر اليوم . وان شئت يا نيكولى أن ابلغه شيئا .

ــ قل له ان البوليس فتش منزله ولكنه لم يجد شيئا . متى تراه ؟ .

ــ فى الساعة الثالثة .

ــ الا يمكن أن أحضر معك ؟ .

ــ لا يمكن اليوم ولكنى سأطلب ذلك من قاضى التحقيق غدا .

كان التغيير الذى حدث فى البيت طفيفا الى حد ان جوزفين

نفسها لم تدركه .
ورفع الزجاجة ليملأ الكأس ولكن تيكولى نصرت اليه وفهم هو نظرتها فترك الزجاجة فى مكانها مع أنها الزجاجة الوحيـــدة التى امسكها ذلك اليوم وفى الأيام العادية كان يشرب زجاجة قبـــل حضوره الى المائدة وزجاجة اخرى وهو جالس أمام المائدة وزجاجة ثالثة بعد الانتهاء من تناول الطعام .
وبقيت الزجاجة وبها نصفها وبعد لحظة ملأنصف الكأس فقط .
وبعد ظهر ذلك اليوم ذهب لورسا الى السجن وتذكره الحارس على الرغم من انقضاء فترة طويلة لم يترافع فيها لورسا فى قضايا ولم يزر المتهمين فى السجن . وقاده الحارس الى الزنزانة رقم ١٧ وطلب اليه الانتظار حتى يخرج منها السجين الآخر الذى مع روبير . وبينما هو خارج عرف لورسا أنه أحد المسجونين العاديين الذين يوضعون عادة مع المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم .
وكان روبير جالسا فى ركن ولما اصبح وحيدا مع المحامى رفع رأسه وحدق اليه بالنظر فى صمت . وطال السكون وهو اشــد ارهاقا لانهما كانا فى وسط المدينة ولا يستطيعان الاحساس بنبضها ولكن بدد هذا الصمت صوت اشعال عود الثقاب لسيجارة لورسا .

ــ هل تأخذ سيجارة ؟ .
ورفض روبير فى أول الأمر ثم بسط يده واخذ واحدة وقال :
ــ اشكرك .
ومع ذلك ظل السكون مرهقا لأعصابهما وخاصة لورسا فقال تفريجا لهذا الشعور :
ــ لماذا حاولت اطلاق الرصاص على نفسك ؟ .

ــ لانى لم أرد الذهاب الى السجن .
ــ وانت فى السجن الآن . هل تراه رهيبا كما يصوره الناس ؟ على كل حال لن تبقى فيه طويلا . . من أطلق النار على لوى الضخم ؟ .
وجاء السؤال مفاجئا لروبير فاســتدار نحوه وهو يكاد يقفز واقفا على قدميه وقال :
ــ لماذا توجه لى هذا السؤال ؟ هل تظن انى اعرف ؟ أم تظن انى قاتله ؟ .

ـ أنا مقتنع بأنك لست قاتله وارجو أن استطيع اثبات ذلك ولكنى سأجد صعوبة شديدة ان لم تساعدنى .

وكان الأمر الغريب هو أن الدافع الى وجوده هنا فى داخل السجن مع روبير هو انه يريد أن يعرف شخصيا لا لأن هذه المعرفة تهمه كمحام بل بدافع الفضول . أراد أن يعرف حتى يستطيع الالمام بأحوال جماعة الشباب .

ومع ذلك فلم يكن فى هذه الجماعة شيء شديد العجب . كان ذلك مجرد نظام انها حياة داخل حياة ومدينة داخل مدينة وطريقة خاصة من الاحساس والتفكير ووحدة صغيرة من البشر تتبع فى سيرها ما تتبعه بعض الكواكب من مدارات غامضة دون اعتبار للنظام العام بالكون العظيم .

ومع ذلك فانه لم يكن ميسورا له الاقتراب من تلك الجماعة ولاسيما أنه رجل فى منتصف العمر محدب الظهر كأنه الدب له عينان كبيرتان بارزتان .

ـ هل تستطيع ان تقول لى كيف اصبحت من هذه الجماعة ؟.

ـ عن طريق لوسكا كما قلت لك من قبل .

ـ هل كانت هناك قواعد أو كلمة سر وما الى هذا ؟.

وعاد لورسا بذاكرته الى أيام الشباب . وكان عليه أن يرجع الى سن كان فيها أصغر من روبير الآن حتى يستطيع أن يجد شيئا مشابها لأنه عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد بدأ يألف العزلة .

ـ كانت هناك قوانين .

ـ مكتوبة ؟.

ـ نعم . وهى موضوعة فى كيس نقود ادمون دوسان ولابد ان يكون قد احرقها .

ـ لماذا ؟.

وهز روبير كتفيه وربما بدا له السؤال سخيفا . ولكن هذا لم يثن لورسا عن عزمه اذ تقرر لديه انه قد احرز بعض التقدم .

ـ أظن أن أدمون هو الذى وضع هذه القواعد .

ـ لم يقولوا لى شيئا ولكنى أظن هذا . فهذه الطريقة هى طريقته .

ـ طريقته قيم ؟. فى تأليف الجمعيات السرية ؟.
ـ كلا فى تعقيد كل شيء . وفى تسجيل كل شيء فى وثائق وقد أرغمنى على توقيع ورقة لنيكولى .

ـ هل هى وثيقة زواج مثلا ؟.
واطرق الفتى برأسه الى الأرض .

ـ باعها لى .. انك لا تستطيع أن تفهم ... وكان ذلك مكتوبا فى القواعد . لا يستطيع أحد أن يأخذ فتاة آخر بدون موافقته وبدون دفع تعويضات .

واحمر وجهه اذ تبين فجأة مبلغ ما فى هذا القول من تجريح ولكنها كانت الحقيقة .
ـ وما هو المقابل ؟.
ـ دفع خمسين فرنكا شهريا لمدة عام .
ـ لادمون ؟.
ـ نعم .
ـ هل كان الرئيس ؟.

ـ هذا هو ما قاله . ولكنى أعرف انه لم يكن بينهما علاقة قط .
ـ أظن دوسان ابن اختى قد أحرق الوثيقة أيضا . لابد أنه كان رئيس العصابة .
ـ نعم .
ـ هل لهذه الجماعة اسم ؟.
ـ عصابة بار الملائكة .
ـ هل كان جو عضوا فى العصابة ؟.

ـ لا . كان يعرف قوانين العصابة ولكنه لم ينضم اليها خوفا على رخصته وهو الآن ينهج نهج الاستقامة .

وكان الليل يسدل استاره فى هذه اللحظة واستطاع ان يسمع وقع خطوات الحارس فى الممشى خارج الزنزانة .
ـ هل كانت العصابة تجتمع كل يوم ؟.

ـ من ناحية المبدأ كنا نذهب الى البار كل ليلة . ولكن ذلك لم يكن قاعدة الا يوم السبت حيث لابد لكل واحد أن يأتى وان يحضر معه ..

وانحنى فجأة :

ـ يحضر معه؟.

ـ ليس لى الحق فى أن اردد شيئا قلته لى مالم تأذن لى بذلك صراحة .

ـ لا بأس اعطنى سيجارة اخرى أولا .. لقد اخذوا منى علبتى مع كل شيء آخر كان معى . حتى ربطة الحذاء .

وكان علي وشك البكاء . ومنذ لحظة كان يسأل السؤال بوضوح ويتكلم بهدوء ولكن منظر حذائه بغير رباط ومرور يده على ياقة قميصه حيث لا ربطة عنق جعله يخنق عبراته .

وقال لورسا بصوت خال من السخرية :

ـ كن رجلا . كنت تقول انه كان على كل عضو ان يحضر معه شيئا .

ـ شيئا مسروقا . وهنا لا أريد أن أكذب . وقد كنت أعرفه عندما قدمونى الى لوسكا أن هناك التزاما ما من هذا اللون .

ـ وكيف عرفت ؟.

ـ قيل لى .

ـ ومن الذى قال لك ؟.

ـ كان كل شبان المدينة يعرفون هذا ..لم يعرفوا تفصيله ولكنهم كانوا يعرفون العصابة .

ـ هل كان عليكم أن تقسموا يمين الولاء ؟.

ـ بل اكرهت على توقيع ورقة .

ـ أظنهم اختبروك .

ـ كانت السيارة هى ذلك الاختبار . اذا أنا لم استطع قيادتها فلابد من أن أقتحم بيتا خاليا وأظل فيه ساعة ثم أخرج منه بشيء ما

ـ مهما كان ذلك الشيء ؟.

ـ نعم ولكن ان زاد ثقله وحجمه كان ذلك أفضل . كان ذلك نوعا

من المباراة . وكان ابسط الاختبارات السرقة من الحوانيت نهارا.
ـ وماذا كنتم تفعلون بهذه الأشياء ؟.

ولم يرد روبير.
ـ هل أنا على صواب عندما افترض انها في بيتي ؟.
ـ نعم في الطابق العلوي .
ـ هل سارت الأمور طويلا على هذا النحو قبل أن تنضم الى العصابة ؟.

ـ مدة شهرين. وربما لم يكن هذا التقدير دقيقا . وأظن ادمون التقط هذه الفكرة في أثناء اجازته في اكس ليبان حيث توجد جماعة مماثلة تقوم بمثل هذه الأعمال .
ـ هل كان ادمون يأتي بأشياء كثيرة ؟.

ـ اتى ذات مرة بابريق قهوة مغطى بقشرة من الفضة سرقه من محل حلوى غمبتا . ولكن حدثت مناقشة ذات مرة اذ اتهمه ديستريفو بأنه انما يسرق الأشياء من بيت والديه لأنه يخشى القيام بسرقة حقيقية وعندما كشف لوى الضخم ان له سوابق أخذ أدمون يفخر بذكر جميع اعمالنا .
ـ هل كان ذلك في نفس الغرفة بالطابق الثالث ؟.

ـ نعم كان بقصد مجرى التفاخر . وهو من ذلك النوع وأنا متأكد من هذا لأنه بسببه أخذ لوى الضخم يطلب المال .. وزعم أن سبب ذلك هو الحادث وبسببنا لم يعد قادرا على العمل وان زوجته تريد نقودا وطلب ألف فرنك في اليوم التالي .
ـ هل اتفقتم على جمع المبلغ ؟.
ـ لا بل تركوا الأمر كله لي .
وأدار رأسه للجدار ثم نظر الى المحامي في تحد .

ـ ماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ قال الجميع ان الغلطة غلطتي حين قلت اني استطيع قيادة السيارة ... ولكن كان للوى الضخم الفضل في اني استطيع رؤية نيكولي كل ليلة . . أليس من الواجب أن احكي لك كل هذا لأنك محامي ؟ وأنك تريد الوقوف على كل هذا ... ولا أعرف سبب رغبتك هذه مع ان سماعك هذا يسيئك .

ـ وماذا قالت نيكولى ؟.
ـ لم تقل شيئا .
ـ واين وجدت الألف فرنك ؟.
ـ فى البيت . وامى لا تزال تجهل انى اخذت هذه النقود . وانا اعرف اين تخبىء مدخراتها .

ـ وبقية النقود ؟.
ـ اية نقود ؟.
ـ الألف وستمائة فرنك الأخرى ؟.
ـ من حدثك عنها ؟.

ـ جاء ذكرها للاسف فى ملف المدعى العام . وقد تعقب البوليس اذونات البريد المرسلة من لوى الضخم الى صديقته .
ـ وأى دليل على انى الذى جئت بالنقود كلها ؟.
ـ انه مجرد شك من جانب الادعاء .

ـ أعارنى لوسكا أربعمائة فرنك أما الباقى فستعرف مصدره عاجلا أو آجلا . ولا أعرف ماذا يجب أن أعمل . كان لوى الضخم يهددنى وزعم انه سيقول كل شىء للبوليس وسيسجننا جميعا . هل تعرف مسيو تيستوت ؟.
ـ ذلك الذى يقيم فى ميدان الجيش ؟.
ـ نعم انه عميل للمكتبة . . . ويشترى الكثير من الكتب وخاصة الكتب الغالية التى نحضرها من باريس . . . جاء الى المكتبة وكان مسيو جورج فوق يشرب الشاى . وجاء مسيو تيستوت ليدفع المبلغ المستحق عليه وهو ١٣٣٢ فرنكا . . فاحتفظت بالمبلغ وكان فى نيتى أن أدفع هذا المبلغ فى أول الشهر .
ـ كيف ؟.
ـ بطريقة ما . . وقد وجدت الطريقة . . واقسم لك انى لست لصا . وفضلا عن ذلك قلت لادمون .
ـ ماذا قلت له ؟.
ـ انى سأكون كبش الفداء عنهم جميعاً وانه من واجبهم جميعاً أن يساعدونى ولو لم يسكرونى ما كنت ارتكبت ذلك الحادث .

- من الضرورى أن أعرف اسماء جميع أعضاء عصابتكم كما تسميها هل كلمك لوى الضخم عن صديق أو شريك آت لزيارته ؟.

ـ لا .

ـ ولا عن عشيقته وحضورها الى مولان ؟.

ـ لا .

ـ هل دار بينكم أى حديث عن وجوب التخلص منه ؟.

ـ نعم .

وفى تلك اللحظة طرق الحارس الباب وفتحه قليلا .

ـ رسالة لك يا مسيو لورسا . وهى آتية من مكتب المدعى العام .

وفض لورسا المظروف وقرأ الرسالة المكتوبة بالآلة الكاتبة .

ـ يتشرف المدعى العام بابلاغكم بأن جان ديستريفو قد اختفى من بيت والديه منذ مساء أمس ..

وتساءل لورسا :

ـ هل تعرف ديستريفو ؟.

ـ انه جار لنا . وقد بنى أبواه بيتا فى شارعنا .

ـ كيف تمت الملاءمة بينه وبين العصابة ؟.

ـ لا استطيع وصف ذلك . انه يضع منظارا على عينيه ويريد دائما أن يكون أكثر براعة من الآخرين وهو يسمى هذه البراعة ايجابية وهو شاحب اللون كثير الصمت .

ـ قال المدعى العام انه اختفى .

وفكر روبير فى هذا وبدا عليه التوتر والشيخوخة .

واخيرا قال :

ـ لا .

ـ لا ماذا ؟.

ـ لا اعتقد أنه فعلها ... انه لا يستطيع أكثر من سرقة الولاعات .

وبدأ لورسا يتعب من الجهود التى يبذلها لمتابعة تفكير الفتى وترجمة كل عبارة بحيث تصبح واضحة كما لو كان يحل شفرة سرية .

وقال :
ـ لا افهم .
ـ انها اسهل الأشياء سرقة . وقد تعود ان يشترى سجائره من بائع السجائر الذى يعرض للبيع الولاعات أمامه . فيستطيع ديستريفو ان يضع واحدة فى كمه ثم يضعها فى جيبه .

ـ قل لى يا روبير ...
وبعد أن صمت برهة قال :

ـ على كل حال لقد كان واحد منكم هو الذى قام بهذا العمل .
ـ نعم !.
ـ من ؟.
وصمت روبير ونظر الى الأرض وقال :

ـ لا أعرف .
ـ أهو دوسان ؟.

ـ لا .. الا اذا .
ـ الا اذا ؟.
ـ الا اذا شعر بالخوف .
وشعر لورسا لأول مرة فى ذلك اليوم بحاجته الى الخمر .

ـ قد ينقلونك في الساعة التاسعة من صباح غد الى مكتب المدعى العام وسأحاول ان اقابلك قبل بدءاستجوابك . وعلى أية حال سأكون هناك ولا تتسرع فى الرد . واذا كان عندك شك فى أىشىء استشرنى صراحة .. وأرى أنه يجب عليك أن تقول الحقيقة بشأن هذه السرقات .

وخرج لورسا بعد أن أبلغه أنه سيسعى الى تغيير رفيقه فى الزنزانة وحذره بوجوب اتخاذ الحيطة فى أحاديثه مع رفيقه الجديد .

وبارح لورسا السجن ومضى فى الشارع حتى وجد مقهىحيث كان الناس يتناولون عشاءهم ودخل المقهى .
ـ أعطنى نبيذا احمر .

وراقبه صاحب المقهى وهو يشرب الـــكأس جرعة واحدة ثم قال :

ـ ان القضية ستثير كثيرا من الغبار . هل صحيح أن القضية تتناول بعض العائلات الكبيرة ؟.

اذن قد انتشر الخبر فى المدينة !.

القســـم الثـــالث

ـ ١ ـ

رفع لورسا راسه ونظر الى ابنته خلسة ثم أخذ يقلب النار فى الموقد فتأججت. وكانت نيكولى تشعر بجميع حركاته فى تلك الليلة العاصفة وهى تقلب اوراق ملف وتفحصها بانتبـــاه . وذهب الى الدولاب واخرج منه زجاجة روم وقال لابنته :

ـ أتشعرين بالبرد ؟.

وقالت :

ـ لا .

وشرب كأسه وقال :

ـ انها ليلتنا الأخيرة ... ففى غد ..

وكان الليل قد انتصف والسماء صافية والشارع نظيفـــا اذ كنسته الريح وبدأت تتساقط عليه كرات الجليد الصغيرة اللطيفة.

ـ كم عدد الملفات التى تصفحتها ؟.

ـ ٦٣ .

ـ هل أنت ناعسة ؟.

وهزت راسها . وكان قد بقى لها أن تتصفح ٣٤ ملفا وبعض تلك الملفات ملىء بالوثائق والمستندات وبعضها الآخر به القليل من الأوراق .

وكان بعض هذه الملفات يضم التحقيقـــات التى اجراها قاضى التحقيق دوكد وهى طويلة لا نهاية لها وهى التى دائما تسبق بدء كل محاكمة .

وكانت النتيجة فوق رف المدفأة تدل على ان اليوم هو الثاني عشر من شهر يناير والليل كان قد انتصف وبذلك قد بدأ اليوم الثالث عشر من شهر يناير وهو يوم الاثنين . وربما لا يهتم أحد بأن اليوم هو الاثنين وهو الثالث عشر من شهر يناير ولكن هذا اليوم كانت له أهميته الخاصة عند لورسا ونيكولى وجوزفين والخادمة وعند آخرين فى المدينة .

ففى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم سيقف حرس خاص على سلم المحكمة ليمنعوا الذين لا يحملون تراخيص خاصة بحضور المحاكمة من دخول المحكمة . وستأتى عربة البوليس بروبير مانو من السجن وقد اشتد نحافة وطالت قامته وارتدى سترة جديدة اعدتها أمه فى الأسبوع الماضى . وسيكون لورسا مرتديا روب المحاماه الذى لم يرتده منذ وقت طويل جدا .

وكان بين يدى نيكولى الآن ملف خاص بشخص يدعى بيجوليه .

وبيجوليه جار ديستريفو وهو صاحب بيت كان يوما ما عازف الكمان الثانى أو الثالث فى اوبرا باريس ثم عاد الى مسقط رأسه وأقام فى نفس الشارع الذى تقيم فيه اسرة روبير مانو . وقال فى شهادته انه لم يعرف تلك الأسرة ولكنه عرف ان فى هذا البيت امرأة تعطى دروسا في البيانو . أما عن اسرة ديستريفو فذكر أنه كان يرى اعضاء الاسرة فى حديقة دارهم ويسمع همهمة اصواتهم دون وضوح ولما كان من عادته السهر الى وقت متأخر من الليل بحكم عادته أيام العمل فى المسرح فانه كان يلاحظ أن أحد اعضاء الأسرة كان يعود الى البيت متأخرا .. وقد التحق الفتى ديستريفو بالجيش أخيرا كمجند .

واوضح بيجوليه فى اجابته أنه يذكر اليوم الثامن من شهر اكتوبر الماضى جيدا لأنه فى هذا اليوم جلس فى احد المقاهى على خلاف عادته ليرحب بأحد اصدقائه بمناسبة عودته من مدغشقر ولما دار بعينيه فى المكان الغريب عليه استوقف نظره التاريخ فى النتيجة . وفى ذلك اليوم لاحظ أن ديستريفو عاد الى بيته فى الساعة الثانية صباحا .

وفى ملف آخر قرأت نيكولى استجواب صوفى ستيف المرأة التى تدير فندقا فى نوايو .

ولدت فى ستراسبورج وكان زوجها كناسافى الشوارع ومات تاركا لها ابنتين هما ايفا وكلارا واستقرت معهما فى بريتانى حيث عملت خادمة فى البيوت نهارا ثم أصبحت صديقــة لرجل يدعى تروليه .

وفى هذا الملف كانت شهادة البنتين ايفا وكلارا . وقالتـا ان زعيم العصابة هو مسيو ادمون الذى كان عنـدما يرقص يميـل بقبعته على أحد جانبى جبينه ويدع السيجارة متدلية من فمه وهو يرقص على انغام موسيقى مسجلة على اسطوانات كان يأتى بهـا معه وهى موسيقى جزر الهند الشرقية وكان الفتى يغازل كلا من الفتاتين دون جدوى ثم يغازل امهمادون جدوى ايضا وكان دائمافى تلهف على مغازلة أية امرأة يقابلها وكان يتمـادى فى الوقاحة فى مغازلته .

اما ديستريفو فكان يقص قصصا قذرة على مسامع البنتـين وأمهما ولا يرده عن هذا ما يلقاه منهن من اعراض على سماع مثـل هذه القصص .

وفى ملف آخر كانت شهادة افرايم لوسكا البدين والد الفتى لوسكا وهو تاجر أدوات الألعاب الرياضية وكان فى فزع عنـدما جاءوا به الى قاضى التحقيق لاستجوابه وقال فى شهادته انه خطر بباله ان ابنه لابد أن يكون عاشقا وانه قال رأيه هذا لأم الفتى وأن الاثنين كانا فى شغل دائم بشأنه .

وفى ملف آخر كانت شهادة تاجر الساعات البدين وكان فى اقواله تناقض وخاصة فيما يتعلق بالتواريخ لاسيما التاريخ الذى قال ان روبير جاء اليه فيه يبيع له ساعته .. كان هـذا هو بيرجو الساعاتى .

وهناك شخص آخر لا ملف له هو لوى الضخم وهو ميت ومع ذلك فهو أكثر اهمية من كل هؤلاء الأحياء ولم تكن له فى حيـاته أية اهمية .

وقد قتله شخص ما . ولكن روبير لم يكن قاتله على الرغم من أنه شديد العصبية ويهيج فى مكتب دوكد قاضى التحقيق قائلا :

ـ قلت لك انى برىء .. ولا حق لك فى محاولة الصاق التهمة بى .

وفى لحظات أخرى يسأل أسئلة تافهة مثل :

ـ هل سيحضر المحاكمة كثيرون ؟ هل ستنشر صحف باريس انباء المحاكمة ؟.

ثم أمسكت نيكولى الملف الأخير ووجدت فيه ورقة مما يوجد فى حانوت بقال وهى مكتوبة بخط امرأة غير متعلمة وبقلم مما يستخدم فى مكتب بريد جاء فيها :

ـ « سيدى .

لك حق فى أن ترى أن روبير مانو برىء . ولا يقلقك أمره . وانا أعرف قاتل لوى الضخم . فان أدين روبير حكيت الحقيقة .

وكانت هذه الورقة قد جاءت فى اليوم التالى لعيد الميلاد وذهبت جميع الجهود المبذولة عبثا دون العثور على كاتبة الرسالة على الرغم من استعانة لورسا بالبوليس . وقد خطر بباله أول الأمر انها انجيل الخادمة التى كانت قد جاءت تطلب مالها والتى شك ذات لحظة فى أن تكون هى قاتلة لوى الضخم .

وهى الآن تعمل فى أحد مقاهى نيفير . وقد ذهب اليها ليحصل منها على نموذج خطها . واتضح انها لم تكن كاتبة الرسالة .

كما خطر بباله ذات يوم أن كاتبة الرسالة هى عشيقة لوى الضخم التى تقيم فى هونفلير التى كان يرسل اليها النقود ولكن النتيجة جاءت سلبية .

وفى الساعة الواحدة من صباح اليوم الثالث عشر من شهر يناير سمع لورسا وابنته نيكولى رنين جرس الباب الخارجى .

وسمعا صوت جوزفين وهى تتقلب فى فراشها فى الطابق الذى يعلوهما .

واسرع لورسا الى الباب وهبط على السلم وعبر البهو وفتح الباب وكان الملاكم جو الذى قال :

ـ رأيت الضوء في غرفة مكتبك . هل يمكن أن أكلمك لحظة ؟
وسار لورسا والملاكم وراءه وهو ينظر حوله في فضول حتى بلغا غرفة المكتب وأومأ برأسه لنيكولى ثم تردد وهو لا يدرى ان كان يستطيع الجلوس أم يجب عليه الوقوف .
وقال :
ـ يبدو انى ارتكبت حماقة . ولك أن تثور على وعندئذ تكون على حق .
وأخذ سيجارة من العلبة التى قدمها اليه لورسا ونظر الى كومة الملفات .
ـ انت تعرف البار الذى اديره . وكنا فيه اليوم أربعة أديل بيجاس ولها صديق مصارع فى الأسواق وكان معها ثم الفتاة التى تصادق جنود البوليس وأنا . وكنا نلعب الورق لنقطع الوقت حتى تحين ساعة النوم . ولسبب غير معروف قلت :
ـ لقد كان المحامى لطيفا معى فأعطانى تذكرة لحضور المحاكمة . ونحن نسميك فيما بيننا المحامى . وعندئذ طلبت أديل منى أن احضر لها هى الأخرى تذكرة لحضور المحاكمة وقالت انها أحق منى بحضور المحاكمة ولم تشأ أن تذكر سبب هذه الأحقية .
ـ ولما تمسكت بتذكرتى قالت أنها تستطيع الحصول على تذكرة تحضر بها فى أول صف من صفوف الحاضرين بل على منصة القضاء ولم تشأ أيضا أن تذكر كيف يتم ذلك .
ـ وبعد أن انتهى اللعب درت عليهم بكؤوس الخمر ورفعت أديل كأسها وقالت :
ـ فى صحة القاتل .
ـ وسألتها عما اذا كانت تعرف القاتل وأجابت نعم . ولكن المرأة الأخرى تدخلت فى الحديث تكذبها وقالت انها انما تفعل ذلك تظاهرا بالاهمية . ولكنى كنت أدرك أن أديل لابد أن تعرف القاتل فعلا وحاولت أن اعرف منها من هو القاتل . وقالت انها تعرف القاتل وتعرف أين ألقى مسدسه وقالت ان القاتل عشيق لها ورفضت أن تقول من هو على الرغم من كل اغراء . وغضبت ولطمتها على وجهها وأخيرا طردتها من البار .

وسأله لورسا عما اذا كان يعرف خط يدها وأجاب جو انه لا يعرف .
ثم سأله لورسا اين تقيم . وأجاب جو بأنها تقيم عند امرأة تؤجر غرف مسكنها الاربع «بالاسبوع» .
وشرب لورسا كأسا من الروم .
وبعد ربع ساعة كان يسير خلف جو فى شارع ضيق حتى وصلا الى البيت الذى تقيم فيه أديل ولكنهما لم يجداها هناك بل وجدا رفيقتها فى المسكن .
وسألها لورسا عن كل ما تعرفه عن أديل وعمن كانوا يتصلون بها من شبان المدينة وأجابت بأنها كانت تعرف مسيو ادمون قبل مقتل لوى الضخم اما بعد مقتله فان ادمون كان مضطربا ومشغول الخاطر وقد أعطاها مائة فرنك حتى لا تتكلم عن هذا الموضوع .
ثم سألها أين ذهبت أديل واجابت المرأة انها لا تعرف لانها لم تقل أين هى ذاهبة وكل ما تعرفه أن لها اختا متزوجة فى باريس حيث تعمل بوابة وأن لها أخا يعمل جنديا فى خيالة البوليس .



استيقظ دوكد قاضى التحقيق على رنين التليفون المزعج ثم استيقظ بعده بينيه مفتش البوليس على مثل هذا الرنين المزعج .
وبعد دقائق انتشر البوليس بالدراجات البخارية وبعض مشاة البوليس للاشراف على العمل .
وقاموا بالتفتيش فى جميع فنادق المدينة ومحطة السكة الحديدية ومحطات الاوتوبيس .
وفى الساعة الثامنة صباحا فتحت المحكمة ابوابها وانتشر البوليس يحافظ على النظام .



- ٢ -

وعلى الرغم من أن كل ما كان بالمحكمة جاء طبقا لما توقعه لورسا فانه لم يملك الا ان يتجهم . فأم روبير مانو كانت هناك مرتدية أفخر ثيابها فى نفس الغرفة التى كان فيها ابنها بين رجلى البوليس .

وقد قالت له وكأنها على وشك أن تدفن وجهها فى صدره باكية :

ـ انى أضع ابنى وديعة بين يديك فهو كل ما لى فى هذه الحياة .

وأحس لورسا ان القضية لو طال أمرها لانتهى به الأمر الى كراهية هذه المرأة فقد كانت شديدة الطيبة شديدة الحياء شديدة الوقار والحساسية فى نفس الوقت . ولا يملك المرء الا أن يرثى لها . انها أرملة مسكينة قضت حياتها تستنفد جهدها ووقتها لتتكفل رعاية ابنها وتربيته وتعليمه ـ هذا الابن الذى رأى فيه لورسا مثلا طيبا للفتيان ولكن الاقدار تسوقه الى محكمة الجنايات ـ .

ومع ذلك كرهها لورسا لأنها زادت من رعايتها وحنانها نحو الفتى حتى كادت تخنقه بعطفها .

ونظر لورسا الى غرفة الشهود ورأى نيكولى جالسة فى تماسك عجيب وثقة وطمأنينة يثيران الدهشة .

ولم يستطع البوليس بعد العثور على أديل بيجاس أو صديقها جين من بوردو .

وفتحت الجلسة .

وكان جو فى الصف الأمامى من الجالسين وكأنه واحد من الأسرة .

وأعلن رئيس المحكمة :

ـ ان هذه قضية دقيقة وأحذر الجمهور بأنى لن احتمل أية مظاهرة وعند أية بادرة اضطراب سأخلى المحكمة ممن فيها .

وجلس روبير بين حارسيه فى حلته الزرقاء الداكنة وربطة عنقه البيضاء وهو يحدق بالنظر الى الأرض واستجمع شجاعته وجال بنظراته فى الحاضرين وتبين بينهم وجوها يعرفها .

وتلى قرار الاتهام وسئل روبير عن قوله فى هذا الاتهام فنظر بهدوء الى لورسا وعندئذ قال لورسا :

ـ يا سيادة القاضى لقد تبينت اخيرا حقيقة تضطرنى الى أن أطلب من المحكمة تأجيل نظر القضية الى تاريخ مستقبل . فقد

سمعت امرأة فى الليلة الماضية تقول انها تعرف قاتل لوى كاجالان، وهى تدعى أديل بيجاس .

ـ اين هذه المرأة ؟.

ـ يبحث البوليس عنها واطلب اصدار أمر استدعاء لها ».

ـ أنا واثق من أن البوليس سيبذل قصارى جهده فى العثور على اديل بيجاس هذه وسيحضرها الى المحكمة .

ثم قام دوكد وأدلى ببيان تفصيلى عن وقائع الدعوى وقد بداها بسرد تاريخ روبير مانو وقال عنه انه عاش وحيدا متشككا فى الناس حتى اليوم الذى التحق فيه بجماعة بار الملاكمة فاستبدت به النشوة والغرور فى هذا المجتمع الجديد الذى التحق به وسرق سيارة احد المواطنين المحترمين لأنه يريد أن يستمتع بما يستمتع به أقرانه ممن هم فى سنه ولكن ظروفهم خير من ظروفه واستسهل دخول بيت رجل يمثل ...

ووجه دوكد نظرة صارمة نحو لورسا واستطرد يقول :

ـ ... القانون والكرامة والاستقامة ... وظل حتى لحظة محاولته الانتحار وهى اللحظة التى قبض عليه فيها ـ ظل عنيدا .».

ونظر لورسا الى روبير ووافق دوكد فيما بينه وبين نفسه على أن شعور النقص كان مستبدا بالفتى نتيجة لحديث أمه اليه عن أبناء وبنات الأثرياء الذين كانت تعلمهم الموسيقى .

وكان يشعر بالارتباك فى مكتبة جورج وهو يخدم زملاء الدراسة وكذلك وهو ينظف رفوف المكتبة كل صباح ثم وهو يقف وراء النافذة الزجاجية للمكتبة يرى الحياة فى الشارع وهو ساكن فى مكانه لا يتحرك وخاصة عندما يرى الطلبة أمثال ادمون دوسان عائدين من مدرسة الدراسات العليا يتأبطون كتبهم .

وكان عليه أن يحمل الكتب الى العملاء فى بيوتهم ولا يستقبله غير الخدم .

واستطرد دوكد يقول :

ـ ان التحقيق أثبت أن المتهم لم يكن له حتى الخريف الماضى سوى صديق واحد أو رفيق واحد هو جوستين لوسكا وهو ابن

تاجر وهذا الصديق يعمل فى حانوت فى مواجهة مكتبة جورج حيث يعمل روبير مانو وكان الفتيان من قبل زميلى دراسة .

ـ كان روبير مانو مجدا فى دراسته متفوقا على حين كان لوسكا خاملا بليدا ولهذا لم يجد عيبا فى ان يعمل بائعا فى السوق وكان ردىء الشباب .

ـ وسنؤيد بالدليل وشهادة الشهود أن المتهم رجا صديقه أن يقدمه الى جماعة شباب دار الملاكمة .

وفى ذات ليلة مطيرة انتظر روبير مانو صديقه لوسكا الذى تأخر لاضطراره لخدمة أمه التى اصابتها تلك الليلة أزمة قلبية كالعادة . ثم ذهب الشابان الى بار الملاكمة وهو المكان المختار للقاء الجماعة ..

ورفع لورسا رأسه لأن دوكد قد وصل الى نقطة حساسة اذ قال :

ـ ولا اريد ان اتعرض لمسلك هؤلاء الشبان فى هذا الموقف سوى أن أقول انهم سمحوا لأنفسهم بالتأثر ببعض الكتب وبعض الأفلام وبعض الدوافع التى لم يكن لديهم الاسلحة الخلقية الكافية لحمايتهم منها .

واستطرد دوكو يقول :

ومما يدلنا على ان هؤلاء الشبان غير حذرين وليسوا بالشريرين هو أنهم بعد الحادث الذى قام به روبير مانو لم يفكروا فى ترك الرجل الجريح لحظة واحدة على الطريق على الرغم من خطورة موقفهم . ولا استطيع لسوء الحظ أن أربط المتهم بنفس الموقف اذ انه يعترف بأنه أغمى عليه بجانب الطريق ولم يعرف أين هو ..

ـ واظهرت الآنسة نيكولى الرقة وحضور البديهة وقررت نقل المصاب الى بيتها . وقد حاولت ان اعرف موقف كل منهم اثناء تلك الليلة .

ـ وانزعج مسيو ادمون دوسان واستدعى الطبيب الذى سيدلى بشهادته فيما بعد .

وبذل المحلفون قصارى جهدهم في أن يبدوا جادين واشتد القلق بالجمهور فهو يريد سماع الأطراف الحقيقية في القضية وذهب البعض الى روجيسار الذى جلس وأمامه علبة من اقراص النعناع وكان معنى هذه الحركات انهم لم يجدوا اديل بيجاس بعد .

ونظر روجيسار الى لورسا وفى عينيه معنى الأسف .

وحاول دوكد ان يتجاهل وجود لورسا ولكن لورسا كان هناك يملأ امامه الأفق كأنه الشيطان .

ـ ويبدو انه حدث أثناء الليل وفى الساعة الرابعة صباحا على وجه التحديد أن وجد اتصال بين المتهم والآنسة نيكولى لورسا التى كانت مستيقظة فى ذلك الوقت .

هذه هى النقطة التى حاولوا جميعا تجاهلها ، وكانوا قد رجوا من لورسا الا يظهر فى أثناء هذه الاجراءات لا من أجله فحسب بل من أجل اسرته وزملائه وكان من تعتبرهم مدينة مولان علية القوم .

واستطرد دوكد يقول :

ـ وقد أبلغنى المتهم فى أثناء استجوابه الثالث يوم ١٨ من اكتوبر انه كان قد طلب الى صديقه لوسكا تقديمه الى هذه الجماعة لأنه كان قد وقع فى غرام الآنسة نيكولى لورسا . . وفى الساعة الرابعة صباحا أفاق من سكره وثيابه كانت ملوثة بالوحل والتقيؤ ووجد الآنسة نيكولى لورسا تعتنى به .

ـ وذكرت الآنسة نيكولى انه شعر بالخجل مما وقع منه ومما كانت عليه ثيابه والتمس منها الصفح وقال لها انه من أجلها وحدها التحق بهذه الجماعة .

ـ ومنذ ذلك اليوم تردد روبير مانو على البيت بمقدار ما سمحت به الظروف ولا أريد التمادى فى القول بأنه استفاد من ظروف الحادث ووجد منها عذرا مقبولا .

ـ وجاء كل مساء بل كل ليلة لأنه لم يكن يعود الى بيت امه

قبل الساعة الثالثة صباحا . وكان يتسلل خلسة من الباب الخلفى للبيت .

ـ ويرد المتهم على جميع أسئلتى الخاصة بعلاقاته بالآنسة نيكولى ساخرا بقوله :

ـ أرفض اقتحام الحياة الخاصة للآخرين .

وشعر لورسا بالعطش الشديد فوقف واشار بيده اشارة تلميذ فى فصل دراسى يريد الاستئذان للخروج وقال :

ـ فى رأيى تأجيل الجلسة ..

وانتهت الجلسة .

ـ ٣ ـ

وعادت المحكمة الى الانعقاد بعد الظهر .

ـ اذا لم يعترض الدفاع فاننا سنأخذ شهادة ديستريفو أولا اذ يجب عليه أن يعود الى وحدته فى الجيش .

وشق الفتى طريقه بين الجموع معتذرا يمنة ويسرة لشدة ازدحام القاعة .

وقال القاضى بصوت أبوى :

ـ لا تخف .. تقدم .

ـ انظر الى المحلفين . ألست قريبا للمتهم ؟ هل لك علاقة عمل به ؟ اقسم على انك ستقول الحق كل الحق . ارفع يدك اليمنى .

وابتسم لورسا لروبير مانو الذى حدق بالنظر الى رفيقه السابق متعجبا من تغير شكله بعد أن ارتدى الزى العسكرى .

ـ هل كنت واحدا من رفاق روبير مانو ؟ وهل كنت واحدا من الجماعة ليلة الحادث ؟.

ـ نعم .

ـ هل كنت هناك مساء ٢٣ من سبتمبر ؟.

ـ نعم .

ـ قبل تلك الليلة الحافلة بالأحداث هل كنت تعرف المتهم ؟.

ـ معرفة رؤية فحسب .

ـ آه. معرفة رؤية فحسب . اعتقد انكما تقيمان فى شارع واحد ولكنكما كنتما صديقين . ولما كنتما تعملان في مدينة واحدة الم تكونا تخرجان من بيتكما فى وقت واحد ؟ .

ـ كنت اذهب الى عملى بالدراجة دائما .

ـ هل كان هناك ما يمنعك من ان تتخذه صديقا ؟.

ـ لا .

ـ ما هو تأثير انضمام المتهم الى جماعتك عليك ؟.

ـ لم يكن هناك تأثير .

ـ هل كان خجولا ؟.

ـ لا .

ـ الم تلاحظ عليه شيئا خاصا ؟.

ـ لم يكن يعرف كيفية لعب الورق .

ـ هل علمته ؟.

ـ ادمون هو الذى علمه اللعب وكسب منه خمسين فرنكا .

ـ هل كان ادمون دوسان محظوظا فى اللعب ؟.

ـ بل كان يغش فى اللعب .

وضحكت القاعة لأول مرة .

ـ هل كانت هذه عادته ؟.

ـ دائما ولم يكن يخفى الغش .

ـ ولماذا اذن كنتم تلعبون معه ؟.

ـ لكشف غشه .

ـ هل شربت كثيرا تلك الليلة ؟.

ـ القدر المعتاد .

ـ وهو ؟ .

ـ خمس أو ست كؤوس .

ـ مم ؟ .

ـ الكونياك بالصودا .

وانتشرت ضحكة اخرى فى القاعة . ولم يبق جادا غير روبير مانو وهو ينصت معتمدا بذقنه على راحة يده محدقا بالنظر الى الشاهد حتى لا تفوته كلمة مما يقوله .

ـ من الذى اقترح الرحلة الى نوايو ؟.

ـ لا اذكر .

وبدت من روبير اشارة قلق كانت تعنى اتهام الشاهد بالكذب

ـ هل تكلم المتهم عن استعارة سيارة ؟ وفى الظروف الاخرى كيف كنتم تصلون الى ذلك المكان ؟.

ـ كان دايا يصحبنا فى سيارة أبيه وهى سيارة نقل وفى تلك الليلة ذهب الى نيفر لاحضار بعض الخنازير

ـ هل كانت فكرة مانو ان تأخذوا أول سيارة تصادفكم ؟.

ـ ربما شجعناه .

ـ من الذى شجعه ؟.

ـ جميعنا .

ـ باختصار قادكم المتهم الى فندق نوايو . ماذا حدث هناك؟.

ـ شربنا بعض النبيذ الابيض . اذ ليس هناك سوى هذا النوع من النبيذ والبيرة .. ورقصنا .

ـ وهل رقص مانو ؟.

ـ مع نيكولى .

ـ يبدو انه كان فى ذلك الفندق الغريب فتاتان هما ايفا وكلارا . ماذا فعلتما معهما ؟.

وشعر القاضى بالخوف من الرد الذى قد يتلقاه عن هذا السؤال ولكنه شعر فى نفس الوقت بالفخر اذ خطر له مثل هذا السؤال :

ـ كنا نعاكسهما قليلا .

ـ ولا اكثر من ذلك ؟.

ـ أنا على الاقل لم افعل اكثر من ذلك .

ـ ورفاقك ؟.

ـ لا أعرف . ولم ار أحدا يبرح الغرفة .

وزادت الضحكات فى القاعة ماعدا الشاهد والمتهم اذ أن ذلك كان مألوفا لهما .

ـ هل كنتم تكثرون من الذهاب الى بيت الآنسة نيكولى ؟.

ـ نعم . غالبا .

ـ للشراب والرقص ؟ ألم تخشوا احتمال ظهور أبيها ؟.

وكان غريبا ان ينظر ديستريفو الى روبير وكأنما يسأله بماذا يجيب .

وقال القاضى : دعنا من هـذا السؤال . هل غير وجود لوى الضخم عادتكم هذه ؟.

ـ كنا خائفين .

ـ تخافون الاشتراك فى الفضيحة ؟.

ـ لا . نعم . كنا نخافه .

ـ فكر جيدا قبل الرد على هذا السؤال . هل فكر أحدكم فى التخلص من لوى الضخم بأى وسيلة ؟.

ـ نعـــم .

ـ من تكلم فى ذلك ؟.

ـ لا أذكر . ولـكنا زعمنا أنه ظل يطلب منا المـال ووجد فى ذلك ربحا طيبا .

ـ هل اقترح احدكم قتل لوى الضخم ؟.

ـ نعـــم .

ـ هل بحثتم هذا الأمر بهدوء ؟.

ـ هل لديك اسئلة يا استاذ لورسا توجهها الى الشاهد ؟. ذلك لأن لورســا كان يتململ فى جلسته .

ـ نعم أريد ان أسأله من كان غير روبير مانو يحب نيكولى ؟.

ـ لقد سمعت السؤال ؟ وأرجو الا تنزعج . وأنا اعـرف أن هذا السؤال ليس طبيعيا أو عاديا ولـكن يجب ان تعتبر السؤال موجها من الدفاع .. أى من المتهم .. أجب .

ـ لا أعرف .

ـ معذرة يا سيادة القاضى . قبل وصول مانو من كان رفيق نيكولى العادى ؟.
ـ ادمون دوسان .
ـ كانا يتظاهران بأنهما حبيبان ولكنهما لم يكونا كذلك .. وكان الأمر فى جملته تسلية . ولكن هل كان هناك سواه يحب نيكولى حبا حقيقيا ؟.
ـ أرى انه لوسكا .
ـ هل قال ذلك لك ؟.
ـ لا . فانه لم يكن يكثر من الكلام .

ـ هل كان الحادث ووجود رجل جريح فى البيت هو الذى فرق العصابة ؟.
وصمت ديستريفو واستطرد لورسا يقول :
ـ هل كانت الحقيقة انه أصبح لنيكولى الآن حبيب حقيقى ؟.
وأطرق ديستريفو الى الأرض وهو لا يدرى ماذا يقول .
ـ هذا هو كل ما أريد يا سيادة القاضى .
ـ هل هناك أسئلة للادعاء .
ـ لا .
ـ لا اعتراض لأحد على عودة الشاهد الى وحدته العسكرية شكرا .
ـ ناد الآنسة نيكولى لورسا . مع اعتذارى للأستاذ لورسا .
وبدلا من ان يبدو على لورسا أى شعور بالذلة بدا فخورا .
ـ تقسمين على ان تقولى الحق كل الحق .. ارفعى يدك اليمنى ورددى القسم .. ذكرت فى التحقيق أن المتهم كان فى غرفتك ليلة الثامن من شهر اكتوبر .
ـ نعم يا سيادة القاضى .
ونظرت الى روبير نظرة هادئة بسيطة وبثقة كاملة .
ـ هل ذهبتما معا لرؤية الرجل الجريح ؟.
ـ لا يا سيادة القاضى . بل ذهبت الى هناك فى الساعة التاسعة لأحمل له عشاءه .

ـ اذن فلم يكن حضوره الى البيت لمســاعدتك فى رعاية لوى الضخم .
ـ لا يا سيادة القاضى .
ـ هل كنت تنتظرين احد الرفاق فى ذلك المساء ؟.

ـ لا . وقد مرت أيام قبله دون ان ارى احدا منهم وفى رأيى انهم تبينوا ان الأفضل ان نكون وحدنا .
ـ متى ذهب روبير ؟.

ـ قبيل منتصف الليل . وطلبت منه ان يأوى الى فراشـه مبكرا اذ بدا عليه انه متعب .
ـ أتسمين ذلك مبكرا ؟.
ـ فى الليالى الأخرى لم يذهب الى بيته قبل الثانية أو الثالثة صباحا .
ـ هل تحدثتما عن لوى الضخم تلك الليلة ؟.
ـ لا أذكر . ولا أظن ذلك .

ـ عندما ذهب روبير عن باب غرفتـك من المفروض ان يكون قد ذهب توا الى بيته ومع ذلك فقـد رآه أبوك بعد بضع دقائق وهو يهبط من الطابق الثالث . فهل هذا صحيح ؟.
ـ صحيح .
ـ هل تعرفين ماذا كان مانو يفعل فى الطابق الثالث ؟.
ـ قال لـكم انه سمع صوتا فصعد الى أعلى .

وتحدث القاضى مع مساعديه بصوت منخفض ثم هز الثلاثة أكتافهم ثم نظـر الى روجيسار الذى هـز رأسه ثم الى لورسا أخيرا .
ـ أشكرك . لك أن تنصرفى .

وبعد ذلك سمح لها بالجلوس بجوار أبيها لتعمل سكرتيرة له .
ـ ناد الشـــاهد التالى .. ادمون دوســـان .. تقسم .. الحق .. اليد اليمنى .. نحو المحلفين .. أرى هنا شهادة طبية تؤكد انك تشكو مرضا خطيرا وأن حالتك تتطلب الحذر .

وكان شاحب اللون يزيد فى شحوبه عن شحوب المرأة ..
كان يعرف ذلك ويستغله ولم يجرؤ على مواجهة مانو .
ـ ماذا تعرفه عن هذه العصابة ؟ وجه كلامك بوضوح للمحلفين
ـ على كل واحد ان يحضر شيئا كما يفعلون فى اكس ليبان.
ـ أكنت فى اكس ليبان تلعب نفس اللعبة لعبة العصابات ؟.
هل كنت ترد الأشياء المسروقة ؟.

ـ كنا نتركها كل صباح حيث أخذناها ثم يلتقطها البوليس .
اما فى مولان فقد قررنا ان نجمع مجموعة حقيقية ولهذا السبب
كنا فى حاجة الى طابق كامل .
ـ فى بيت خالك ؟ وماذا كان موقف المتهم ؟.

ـ كان يأخذ جميع الأمور مأخذ الجد . ومنذ البداية قلت
للجميع انه سيكون مصدر مضايقة لنا .
ـ هل بدا المتهم لك خائفا من تطور الأحداث ؟.
ـ كان خائفا جدا وخاصة أمام مطالب لوى الضخم .
ـ هل تعرف أن المتهم كان يسرق المال ؟.
لا جواب ، وفى أثناء ذلك قدمت نيكولى لأبيها ملفا .

ـ سؤال واحد يا سيادة القاضى . هل تتفضل بسؤال المتهم
عما اذا كانت له علاقة بأديل بيجاس ؟.
ـ هل سمعت السؤال ؟ أجب ؟.
ـ نعم .. اى ..
وقال لورسا :
ـ كم مرة اتصلت بها ؟.
ـ مرة واحدة .
ـ هل هناك أسئلة أخرى يا أستاذ لورسا ؟.

وفوجىء لورسا لأنه كان مشغولا بالتفكير فى ابن اخته الذى
رأى فيه انه لن يعيش أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات أخرى .
ولكن لورسا كان يعرف كل الاجابات التى قد يدلى بها
الفتى ردا على كل أسئلته .

ـ عندما سمعت نبأ مصرع لوى الضـــخم هل فكرت توا في روبير مانو ؟.

ـ لا أعرف .

ـ هل خطر ببالك اى صديق آخر ؟.

ـ لا أعرف .. ولا اظن ذلك .

ـ كان صديقك ديستريفو يخجل من مشاركته في مثل هذه الأعمال الخطرة فهل خجلت أنت ايضا ؟.

وقال ادمون :

ـ أنا آسف .

ولم يكن مثل ديستريفو الذى أعد كلامه من قبل وتلاه بعناية.

ـ ... أنا آسف لـكل ما جر على أسرتى العار ، أسرتى التى طالما بذلت لى قصارى جهدها . ألتمس منها العفو عن كل ماصدر منى و ..

وانقضت ساعة أخرى في استجواب الشهود .

وكانت انجيل في غـرفة الشهود تحكى قصصا رهيبة عمـا حدث ليلا في بيت لورسا متجاهلة وجود جوزفين المتجهمة في أحد الأركان .

وخرج لورسا الى الشارع الى العالم الحقيقى وبعد قليل لحق به جو واخذ يمشى الى جواره .

ـ انى لأعجب من أمر «اديل» واتساءل أين ذهبت فقد بحثت عنها في كل مكان ولن يدهشنى أن تكون قد بارحت المدينـــة .. ما رأيك في سير القضية . لسنا في حال سيئة .

واشترت جوزفين وهى في طريقها الى البيت طعـاما لعشاء بارد وبدا البيت فارغا خاليا من المرح والبهجة .

ولم يكادوا يشعرون بالراحة بعـــد ما أصابهم من تعب في محكمة الجنايات .

وأكلت نيكولى بشهية والتقت نظراتها بنظرات أبيها عدة مرات وفى كل مرة أسرع بخفض بصره . كان يعرف ما تفكر فيه ولكنه لم يرد أن تعرب عن هذا التفكير .

ولقد كان فى نظرات نيكولى الى ابيها الفضول الذى يشوبه الاعجاب وبعض العناصر الأخرى ، انه العرفان بالجميل والعاطفة المتعثرة خجلا .

ولما تركت المائدة سألته :

ــ ماذا ستفعل هذا المساء ؟.

ــ لا شيء سوى أن آوى الى الفراش ..

ولم يكن هذا صحيحا . لأنه كان يعلم كم هى منشغلة الخاطر ويعلم سبب هذا الانشغال ولكنه لم يستطع أن يعدها بعدم الشراب .

وفضلا عن ذلك فقد كان فى حاجة الى الشراب ، فى حاجة الى أن يشرب وحيدا فى معزله والى أن يدخن السيجارة تلو الأخرى والى أن يقلب النار فى المدفأة والى أن يجلس ثم يقف ثم يجوب أنحاء المكتب والى أن يهمهم ويتمتم بينه وبين نفسه والى أن يتخلل شعره بأصابعه .

واقتربت من باب غرفة مكتبه ثلاث مرات وكان يحس وجودها فى كل مرة اقتربت فيها من ذلك الباب .

لابد انه واحد من أفراد العصابة ذلك الذى دخل غرفة لوى الضخم وقتله ولكن القاتل شخص آخر غير روبير مانو وهذا أمر عرفه لورسا منذ الوهلة الأولى . ولقد سئل هذا القاتل ضمن من سئلوا وأجاب على ما وجه اليه من أسئلة وذهب الى فراشه ونام ولكن الجريمة أرقته ولكى يخفف من عبء هذا القلق خرج الى الشوارع ليلا والتقى بأديل بيجاس ومضى معها الى مكان ما وأشركها معه فى سره لأنه أحس بأنه على وشك الانهيار ولابد من شخص يسرى عنه . ولكن كيف كان يدلى الى أديل بهذا البيان ؟ هل كان يفخر ؟ أم كان يسخر ؟ أم كان يعترف بذعره ؟.

هل كان هذا القاتل ديستريفو الذى يحاول قصارى جهده لارضاء كل واحد أم ادمون دوسان الذى يجد فى مرضه مهربا من المسئولية ؟.

وتصور لورسا ادمون دوسان يحدث نفسه وتصور انه يسمع هذا الحديث وفيه يقول :

ـ انك تعـــرف انى ضعيف وان أيامى الباقية فى الحياة محدودة وقد لعبت لعبة للتسلية . . وليست لذلك أهمية .

وفى غد سيستجوبون دايا ولوسكا كشاهدين .

وسمع لورسا اجراس الـكنيسة تدق . لقد اختفت اديل وصديقها جين فى مكان ما ولابد ان يكونا قد عرفا انهما مطلوبان

وذهب لورسا أخيرا الى فراشه وهو يقنع نفســـــه بضرورة بذل مجهود أخير .

وكانت أسرة روجيسار سعيدة فالمحاكمة تسير بصورة مرضية واخفيت عـــدة أمور . وكان سلوك لورسا حميدا وكانت نيكولى فطنة لبقة . وكانت هناك عدة محادثات تليفونية .

وأراد دوسان أن يعرف ان كان ابنه خاليا من المسئولية . . أما ذلك الابن نفسه فقـــد آوى الى فراشه وقد ارتفعت درجـــة حرارته وبالغت امه فى الاهتمام به .

أما لوسكا فقد أغلق بابه عليه .

وأخذت مـــدام مانو تصلى من اجـــل ابنها فى بيتها وأخذت تبكى ثم عادت الى الصلاة ثم تأكدت من أن باب البيت كان محكم الاغلاق ثم عادت تبكى وهى تخلع ثيابها استعدادا للنوم .

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى بدات المحـــكمة عملها وكان روبير بنفس ثيـــابه التى كان بها فى اليوم السابق ولـــكنه اليوم متعب وهذا التعب واضح ويبدو انه لم ينل قسطا كافيا من النوم .

واندهش لورسا اذ لم يجد جو بين الحاضرين مع أنه من بين الذين سيدلون بشهادتهم اليوم .

وجلس دايا فى مقعد الشهود .

ـ هل أنت جزار تعمـــــل فى حانوت أبيك ؟ وهل قلت فى التحقيق انك كنت تسرق بعض كميات من اللحم من حانوت ابيك ؟ .

ـــ لو لم اقل ذلك بنفسى لمـــا عرفه أحد .

ـ وهل سرقت بعض النقود من خزينة أبيك ؟.

ـ طبعا . وهذه مسألة عائلية . ومادام الأبوان يصرفان المال فلماذا لا أفعل أنا الآخر ذلك ؟.

ـ يبدو لي أن أباك ...

ـ لم تكن حسابات المحل دقيقة أبدا . وفي كل ليلة تصيح أمي وتسب وتصخب وينتهي الأمر عند هذا .

ـ لقد تعرفت بالمتهم في بار الملاكمة ليلة الحادث ...

وانتبه لورسا فجأة فقد شاهد شابا يشق طريقه بين الصفوف حتى اصبح في محاذاته واشار اليه . ونهض لورسا ومضى نحوه فاذا به يقدم له رسالة . وكانت نظرات روجيسار متجهة اليه وقرأ في الرسالة :

« لقد وجدتهما . وانها للعبة قذرة أن أجرهما الى المحكمة الآن . وهناك عدة أمور لم أعرفها عن جين ولابد له من الاختفاء . وقد وعدتهما بأن تدعهما وشأنهما ان قالت أديل من الذى قتل لوى الضخم . وقد قالت انه لوسكا . وستعرف كيف تستخلص منه الاعتراف .

« جو »

وكان القاضي قد مال الى الأمام وبدا عليه انه يضحك وهو يقول :

ـ لقد سألتك يا أستاذ لورسا ..

ـ معذرة . معذرة . ليست لدى أسئلة .

ـ والادعاء ؟.

ـ لا أسئلة .

واخلى سبيل دايا وجاء دور لوسكا على مقعد الشهود .

ـ هل تعرف المتهم ؟ معذرة أمامي في المستندات أنك عرفته منذ وقت طويل فقد كنتما زميلي دراسة .

ـ ٤ ـ

وكان والد لوسكا واقفا بجوار الجدار بين المحامين واخذ لورسا يرقبه باهتمام وهو يقف على أطراف أصابع قدميه يتتبع المحاكمة .

وقال لوسكا :

ـ لقد عرفت ادمون دوسان ذات ليلة عندما كنت العب البليارد فى محل حلوانى الجمهورية .

ولا بد أن يكون القاضى هو الآخر قد تساءل كيف يستطيع مثل هذا البائع الجوال على رصيف السوق دخول مثل هذا المكان الخاص بالطبقة الراقية من المواطنين والانضمام الى حاشية ادمون دوسان . ولكن السادة يحبون تجنيد الاتباع والبطانة ومثل لوسكا هذا يمكن الاعتماد عليه فى اثارة الضحك عندما يريد ادمون ان يضحك ، وفى اشباع الغرور بما يجيده من أساليب التزلف والنفاق .

ـ متى تعرفه ؟.

ـ لا أعرف ذلك على وجه التحديد . كان فى الشتاء الماضى.

وتجهم لورسا وهو لا يزال يرقب الأب كما لو كان يريد أن يستشف من وراء هذا الوجه حقيقة القصة .

وبدا عليه أنه استيقظ فجأة واتجه الى نيكولى وقال لها شيئا بصوت هامس على حين كانت تقلب الملفات ثم نظر الى الشاهد كمن يحاول الوقوف على معرفة مدى ما وصل اليه فى شهادته .

وقالت نيكولى : نعم سيقوم بالادلاء بشهادة وانت الذى طلبت ذلك .

ونهض واقفا على قدميه وقاطع أسئلة المحكمة وقال :

ـ معذرة يا سيادة القاضى . لاحظت أن أحد الشهود الذين سيدلون بشهادتهم موجود الآن بقاعة المحكمة .

ونظر جميع الحاضرين فى أنحاء القاعة . وكان من الغريب ان ينظر والد لوسكا هو الآخر زاعما انه ليس المقصود .

ـ من هو يا أستاذ لورسا ؟.

ـ افرايم لوسكا والد الشاهد الحالى ويجب وضعه فى غرفة الشهود .

ـ لماذا انت هنا يا افرايم لوسكا ولست في غرفة الشهود؟.

وتجمد الرجل في موقفه وقد حبست انفاسه وهو يرجو الا يكون هو المقصود بهذا الكلام . وقال انه لم يفهم كيف جاء الى هنا ومضى يشق طريقه الى غرفة الشهود .

ـ اية اسئلة من الادعاء ؟.

ـ اريد ان اسأل الشاهد وهو الذى عرف المتهم منذ ايام الدراسة ماذا يعرفه عن طباعه هل هو صريح طيب ام متحفظ مستعد دائما للهجوم ؟.

ـ تسهل اثارته واغضابه .

ـ هل تعرف فيه انه يحقد على من هم خير منه ؟ اجب على مهل . ان مانو يعيش في ظروف صعبة ورقة حال كما تعيش انت .

ـ نعم كان يحقد على هؤلاء .

وقال روجيسان :

ـ قلت انه هو الذى طلب منك تقديمه الى الجماعة في بار الملاكمة . حاول أن تتذكر . في تلك الليلة الأولى . ليلة الحادث الم يكن موقف مانو من ادمون دوسان مثيرا للاستفزاز ؟.

ـ كان واضحا انه لم يحبه .

ـ آه كان واضحا انه لم يحبه فهل قال شيئا أو فعل شيئا يدل على ذلك ؟.

ـ اتهمه بالغش .

ـ وماذا كان رد دوسان ؟.

ـ ضحك واتهم مانو بالسذاجة .

ـ هل رأيت مانو كثيرا في الايام التى تلت الحادث؟ انت تعمل في نفس الشارع الذى يعمل فيه المتهم .

ـ خلال اليومين أو الأيام الثلاث الأولى .

ـ استمر .

ـ وكان يكلمني . ولكن بعد أن بدأ مصاحبة نيكولى ...

وكان واضحا ارتعاد ركبتيه داخل «بنطلونه» .

ـ استمر . ماذا حدث عندئذ ؟ .

ـ لم يعد يهتم بنا .

ـ فهمت . كان قد بلغ هدفه ، اشكرك . لا مزيد من اسئلة يا سيادة القاضي .

ونهض لورسا واقفا .

وبدأت العداوة مع أول عبارة .

ـ هل يستطيع الشاهد ان يقول لنا كم يعطيه ابوه من مصروف ؟ .

واضطرب لوسكا ونظر الى المدعى العام روجيسار الذى كان قد اتى بحركة فى ناحية القاضى .

واستطرد لورسا يقول ليقطع على المدعى العام محاولته !

ـ استجوب الادعاء الشاهد فى مسائل بعيدة عن الحقائق وفى مسائل تتعلق برأيه الشخصى وأرجو أن يسمح لى بالقاء بعض الضوء على شخصية لوسكا .

وما كاد يتم عبارته حتى اندفع لوسكا يقول !

ـ لم تكن به حاجة الى اعطائى مصروفا فانا اكسب هذا المصروف .

ـ كم تكسب فى السوق ؟ .

ـ ٤٥٠ فرنكا شهريا .

ـ هل تحتفظ بهذا المال ؟ .

ـ أعطى أمى ٣٠٠ ثمنا لغذائى واجرا لغسل ثيابى .

ـ متى تكسب هذا المبلغ ؟ .

ـ منذ سنتين .

ـ هل لديك مدخرات ؟ .

ـ أكثر من الفى فرنك .

وبدا على لورسا الرضا ونظر الى المحلفين وقال !

ـ هذا الشاهد الذى يبلغ التاسعة عشرة من عمره يملك اكثر من الفى فرنك بعد أن عمل سنتين .

ثم عاد ينظر الى لوسكا :

ـ هل تشترى ثيابك من مبلغ المائة والخمسين فرنكا التى لك ؟

ـ نعـــم .

ـ هل تعرف كيف تغش فى لعب الورق ؟

وبدأ لوسكا يفقد سيطرته على نفسه وبدا عليـــه كما لو كان قد وقع تحت تأثير مغناطيسى وهو يتلقى هذه الأسئلة المتلاحقـــة كالأسهم النارية .

ـ لا .

ـ لا تغش فى لعب الورق . هـــل تعودت السرقة من متجر أبيك ؟

ـ لم آخذ شيئا قط من أبوى .

ـ هل تخرج مع دوســـــان والآخرين مرتين أو ثلاث مرات اسبوعيا ؟ وذلك مدة ثمانية اشهر .. اى ..

وطرق القاضى المكتب بسكين الورق وصمت لورسا على الفور ونظر اليه بهدوء :

ـ يجب ان اذكرك يا استاذ لورسا انى الشخص الوحيد الذى له حق استجواب الشاهد . واية أسئلة تريد توجيهها اليه لابد أن تتم عن طريقى .

ـ معذرة يا سيادة القاضى ، أرجو أن تسأل الشاهد من الذى يدفع له ؟

وقال القاضى :

ـ قل للمحلفين من الذى يدفع لك ؟

ـ لا اعرف .

ـ أرجو ان تسأل الشاهد هل كان المتهم يدفع عن نفسه ؟

ـ هل كان المتهم يدفع عن نفسه ؟

ـ نعم بالنقود التى كان يسرقها .

وقبل أن يبدأ لورسا توجيه الأسئلة كان الجمهـــور هادئا كل الهدوء ، وحالما بدأ هذه الأسئلة تيقظوا وتتبعوا سير الاسئلة باهتمام ويقظة ولم يستطيعوا ادراك ما هو حادث . لم تكن أسئلة لورسا بل القوة التى وراءها هى التى جذبتهم .

وتحير روبير مانو . هل بدأ يفهم ؟.

وتغيرت ملامح لوسكا هو الآخر وشعر بأنه كوحيد بين هـــذه الجموع .

ـ أريد أن أعرف ياسيادة القاضى ما اذا كانت للشاهد علاقة بالنساء ؟.

وجاء الرد : لا .

ـ هل مرجـع ذلك الى الجبن أم عـدم الاهتمـام أم بدافع اقتصادى ؟.

واحتج روجيسار قائلا :

ـ ان هذه الأسئلة يا سيادة القاضى ....

ـ حسنا يا سيادة المدعى العام ســـندع هذا الآن وسننتقل الى النقطة التالية .. عنـدما انضم روبير مانو الى العصابة فهل كان الشاهد يحب نيكولى ؟.

صمت ولوسكا يزدرد ريقه .

قال أحد الشهود أمس ان لوسكا كان يحب نيكولى وستتضح أهمية هذا السؤال . والذى أحاول اظهاره يا سيادة القاضى هو أن الشاهد خجول منطو على نفسه . لم تكن له خبرة مثل صديقه دوسان الذى كان منذ بضعة أسابيع سابقة قـد طلب من احدى المحترفات ....

همهمة احتجاج وضاع هباء جهد القاضى فى اسكات الهمهمة

ـ اجبنى يا لوسكا . عندما طاردت اديل بيجاس عند ناصية شارع بواتييه بعد انقضاء عدة أيام من وفاة لوى الضخم الم تكن هذه هى المرة الأولى التى أصبحت لك فيها علاقة بامرأة ؟.

ووقف لوسكا ساكنا صامتا وشحب لونه وحدق بالنظر الى لورسا بعينين متسعتين لا ترمشان .

ـ اديل بيجاس التى ترتاد بار الملاكمة والتى تمارس مهنتها فى شوارع مدينة هال والتى كثيرا ما القى القبض عليهـا وارجو أن تحضر هنا بين لحظة وأخرى .

وسأله القاضى :

ـ هل لديك أسئلة أخرى ؟ .

ـ بضعة اسئلة يا سيادة القاضى . أرجو ان تسأل الشاهد لمـاذا رأى من الضرورى فى الأيام الأخيرة الانفراد بهذه المرأة ؟.

ـ فهمت السؤال .

ـ لا اعرف عمن يتحدث .

ـ أرجو يا سيادة القاضى أن تطلب من الشاهد أن يذكر للمحلفين ماذا قاله لهذه المرأة فى ليلة معينة ؟.

ولم يخفض لورسا بصره لحظة واحدة عن لوسكا حتى لا يدع له فرصة لاستجماع قواه ، وفى لحظة يتجمد الفتى ويتصلب وفى لحظة تالية يتحسس شيئا يستند اليه .

ـ لم أسمع الرد يا سيادة القاضى .

ـ ارفع صوتك يا لوسكا .

وفى هذه المرة نظـــر لوسكا الى روبير ماتو الذى كان يتنفس بصعوبة .

ـ ليس لدى ما أقوله .. كل هذا خطأ .

وقال روجيسار :

ـ يا سيادة القاضى ..

وقال لورسا :

ـ يا سيادة القاضى أطلب الاذن بالاستمرار فى سؤال الشاهد على طريقتى الخاصة ، وهل تتفضل بسؤال الشاهد هل كان فى بيتى فى ليلة الثامن من شهر اكتوبر وهل كان هو الشخص الذى رآه المتهم يختفى هاربا من الباب ؟.

وخيم الصمت المطبق على المحكمة ، اما لوسكا فقد اصبح كتمثال من حجر .
وانتظر الجميع محترمين صمته وظل لورسا معلقا يده فى الهواء كما لو كان مغناطيسيا .
وأخيرا قال بصوت كما لو كان آتيا من مكان سحيق :
ـ لم أكن فى البيت .
ـ وتنهد الجميع بصوت مسموع ولكنه لم يكن تنهد الارتياح بل تنهد الضجر ونظر الكل الى لورسا .
ـ هل يستطيع الشاهد أن يقسم انه كان فى بيته فى ذلك الوقت ؟ وهل يستطيع ان يواجه المتهم وهو يقسم ؟ .
وخيم الصمت والانتظار مرة أخرى .
ـ اذن فأنت لا تجرؤ على مواجهة المتهم ؟ .
ونظر لوسكا حوله ثم رفع رأسه .
وهنا لم يطق روبير الاحتمال وصاح قائلا :
ـ أيها القاتل . . جبان . . جبان . . !
وارتعدت شفتاه وكان ينهار ولم يملك الا أن يكرر كلمة جبان
وكادت الرعدة التى أصابت العمود الفقرى للوسكا تبدو واضحة للناظرين والتى أصابت أسنانه تبدو واضحة فى آذانهم وبدا وحيدا منعزلا وكل الأعين مسلطة عليه .
ثم جاءت النهاية وانهار على غير انتظار الى حد أنه لم يذكر احد فيما بعد أنه رآه وهو يسقط على الأرض أمام مقعد الشهود وقد دفن رأسه بين ذراعيه وهو يصدر أصواتا غريبة رهيبة .
وجلس لورسا وأخرج من جيبه منديلا أخذ يجفف به عرقه فوق جبينه وعينيه . ونظر الى نيكولى الجالسة وراءه شاحبة الوجه وقال :
ـ لم أستطع الاحتفاظ بالأمر أكثر من ذلك .
وتشاور القاضى مع مساعديه وقرر تأجيل الجلسة .
وخرج المحلفون وهم غير راغبين فى الخروج وألقوا نظراتهم على الشاهد المتجمد على الأرض وقد انحنى فوقه محاميان يحاولان افاقته واقتيد روبير مانو الى خارج القاعة وهو الآخر ينظر الى لوسكا فى وضعه ذلك فى حيرة وارتباك .

وجلس لورسا فى مقعده ساكنا ، بادى الكراهية .
وتقدم محام من لورسا وساله :
ـ هل تظن ان القضية ستبدأ من جديد ؟.
ونظر لورسا اليه كمن يريد أن يقول له : وما شأنك بهذا ؟.
ونصحت نيكولى أباها بالخروج قليلا لتغيير الهواء ولكن هذه النصيحة لم تكن لصالح لورسا فقد كان شديد العطش الى الخمر فخرج من المحكمة وهو بالروب الى البار القريب .
وساله رجل البار :
ـ هل صحيح أن لوسكا اعترف ؟!.

— ٥ —

مسكينة جوزفين ! لقد غمرتها النوايا الطيبة حتى أصبح وجهها القبيح ذا ملامح تأسر النفس .
قالت للورسا :
ـ يجب أن تنضم الى الجالسين أمام مائدة الطعام يا سيدى . لابد لسيدى من أن يأكل شيئا .
ولم تعد جوزفين تنظر نظرة الكراهية لاعقاب السجائر او زجاجات الخمر الباقية من الأيام الخالية .
ونظر اليها لورسا قائلا :
ـ لا يا جوزفين فأنا متعب .
ـ ان مسيو روبير فى لهفة الى شكرك .
ـ نعم . . طبعا .
ـ اذن فسأقول لهم انك قادم اليهم .
ـ قولى لهم انى سأراهم يوما ما .
وكان هذا هو ما تنتظره نيكولى . وابتسمت لمدام مانو .. وقالت :
ـ أرجو أن تلتمسى العذر لأبى فقد عمل كثيرا فى الأسابيع الاخيرة .
وقال روبير :
ـ لقد أنقذ حياتى .

وقالت مدام مانو انها تشكر نيكولى لدعوتها اياهما لتناول طعام العشاء عندها تلك الليلة وانها تشعر بأنها أسعد نساء العالم وأرادت أن تذكر الليالى الماضية التي قضتها وحيدة وهدأت نيكولى خاطرها .. وقالت :

ـ ان كل شيء سيىء قد انقضى الآن .

ولاحظ روبير ان نيكولى تنصت الى شيء ما وأن فى عينيها نظرة شاردة وشعر بالغيرة .

ـ ماذا بك يا نيكولى ؟.

ـ لا شيء يا روبير .

ـ هل قلت لوالدك انى ذاهبة الى باريس ؟.

ـ نعم .

ـ وما رأيه فى هذا ؟.

ـ ان هذا هو أفضل ما تفعله .

ـ هل يوافق على زواجنا حالما أجد عملا ؟.

لماذا يكثر من الكلام ؟ ولماذا كان فى عجلة للوقوف على كل شيء ؟

وظلت نيكولى تنصت بعد ذلك ولم يكن هناك صوت يسمع الا صوت الريح فى المدخنة وصوت شوكة مدام مانو وهى تمسكها بأناقة وتلتقط بها طعامها .

وقالت مدام مانو :

ـ انى لأعجب كيف أمكن كشف الجريمة والأعجب من هذا كيف اعترف لوسكا .

واعتذرت نيكولى وخرجت من الغرفة فجأة . وفى الممر المظلم وقفت فجأة عندما سمعت صوت اغلاق باب غرفة المكتب ثم صوت خطوات أبيها وحادت عن الطريق واختفت وراء أحد الأبواب وبذلك مر أبوها بها دون أن يلحظ وجودها .

أو ربما شك فى وجودها اذ تردد بعض الشيء وكان تنفسه ثقيلا دائما بسبب الخمر .

وهبط على السلم ووضع قبعته على راسه وارتدى معطفه وفتح الباب وخرج .

وظلت نيكولى فى مكانها لحظة ثم ابتسمت لأنهـا أصبحت سعيدة وعادت الى الضيفين .

وقالت لجوزفين :

ـ آتنا بالجبن يا جوزفين .

ومضى لورسا فوق الرصيف وهو لا يدرى الى أين هو ذاهب ثم نظر حوله وشعر فجأة بنفسه غريبا فى هذه البيئة على الرغم من أنه عاش فيها طويلا .

وفكر فى روجيسار وفى زوجتـه ثم قهقه طويلا . انهما سيبدآن لعبتهما من جديد .

وعبر شارع البيه ومر بمقهى وسمع داخل المقهى صوت لاعبى البلياردو . هنا كان لوسكا يلعب البلياردو .

وظل يمضى فى طريقه حتى وصل الى بار الملاكمة .

وقال جو :

ـ خطر لى انك ستحضر بالتأكيد ولكن لم يخطر ببالى انك ستحضر اليوم .. أما بخصوص تلك الرسالة التى أرسلتها لك فلا بد لى من أن أفسر لك أمرها .. حصلت على تلك المعلومات من جين صديق أديل .. وقد ارتكب جريمة فى انجوليم منذ شهرين ويخشى أن تكشف أديل أمرها ان هى استجوبت .. لقد جاء دورى فى أن اقدم لك كأسا فماذا تفضل ؟ اما عندما يحضر مسيو روبير مانو فسأقدم له زجاجة من الشمبانيا فان هذا الفتى شجاع حقا.

وكان لورسا يشعر بالضيق ولكى يغطى موقفه شرب كأسا وخطر بباله انه سيكون أكثر راحة فى أى مكان آخر وتساءل لماذا لا يذهب الى فندق نوايو مثلا ؟.

وذهب الى هناك وتكررت زياراته الى حد أن سائقى السيارات عرفوه ولم يفده ذهابه شيئا لأنه لم يعرف ماذا يقول لكلارا أو ايفا .

وكان يمر ببيت أسرة دوسان ويحدث نفسه بدخول البيت ولكنه يمضى فى طريقه دون أن يفعل .

وحدث له مثل ذلك عند مروره بشارع بواتييه حيث المرأة

التى تؤجر غرف بيتها لنساء من أمثال اديل . وكانت اديل قد عادت اليه بعد ان هجر صاحبها جين البلاد وأرسل لها تذكرة بريد من بروكسل .

وساءت أحوال بار الملاكمة بعد ان تفرقت العصابة وفكر جو فى بيع البار وفى العمل كبائع جوال فى السوق .

وجوزفين اصرت على مصاحبة نيكولى الى باريس وكان هذا الأمر يعنى أن يبقى لورسا وحده فى البيت وليس معه سوى أنجيل التى لا تصلح الا لخدمة كاهن أو راهب .

وصدر الحكم ضد لوسكا بسجنه عشر سنوات . وماتت أمه ولا يزال أبوه يبيع البلى فى حانوته الصغير بالسوق .

وجاءت الى لورسا تذكرة بريد من نابولى عليها صورة البركان فيزوف وهو يقذف اللهب والحمم وقد كتب فى ظهرها :

« الحب من نابولى ..

نيكولى وروبير »

واودع ادمون دوسان مصحة فاخرة واستمر ابوه يرتاد النوادى الليلية فى مصاحبة الفتيات ورقى ديستريفو فأصبح جاويشا ، ورقى دوكد وانتقل الى فرساى .وظل روجيسار يرتاد معبد سانت برناديت فى لورد حيث يتطوع بحمل محفات المرضى وتزوج دايا الابن من ابنة رجل يبيع الفوسفات .

وظلت أديل ورفيقاتها يتسكعن على أرصفة شوارع المدينة

وان آخر نظرة نلقيها على لورسا تبينه لنا جالسا فى كبرياء وأمامه الكأس .

« تمت »

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة بين مقاولى القطاع العام والخاص عملية انشاء مركز طبى بورتوفيق . ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا بمقر الهيئة بالاسماعيلية (قسم المشروعات) نظير مبلغ عشرة جنيهات . وتقدم العطاءات داخل مظروفين مغلقين بالشمع الاحمر يعنون الخارجى باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس — الادارة الهندسية (قسم المشروعات) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٣ يونيو ١٩٦٤ ويجب أن تكون العطاءات مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ١٠٠٠ جنيه ولن يلتفت الى العطاءات التى ترد بعد الموعد المحدد أو الغير مصحوبة بالتأمين الابتدائى .



الدار القومية للطباعة والنشر



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يونيو 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

الثقافة والإرشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر



تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر







القاهرة

مركز عالمى للإشعاع الثقافى
كتاب كل ست ساعات



















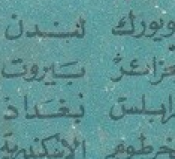


مكتبات الدار

نيويورك — لندن
الجزائر — بيروت
طرابلس — بغداد
الخرطوم — الإسكندرية
القاهرة











Exclusive

For

www.ibtesama.com